الشعر والزمن

جلال الخياط

Riyadh Hamza

منشورات وزارة الاعـلام ـ الجمهورية العراقية

١٩٧٥ ——————————— سلسـلة الكتب الحديثة
(٨٨)

الشعر والزمن

جلال الخياط

مقدمة

في نهايات القرن الثامن عشر وعبر القرن الذي يليه مرورا بالسنين حتى اللحظة الحاضرة تغير التوقيت فى كثير من بلاد العالم وتبدلت الزمنية واتخذت طابعا جديا واقعيا ، وأسهم ، فى عملية التحول والتبدل المتلاحقين ، قيام الثورات العارمة وظهور الافكار والمخترعات والانجازات الحديثة ، ولم يعد هناك مكان للاستغراق الكلي فى المتاهات الميتافزيقية ، وقطع الذكاء البشري اشواطاً بعيدة وسارت عجلة الزمن تسحق بطياتها التخلف ؛ وكان على الفن أن يعبر عن هذا وذاك !

ولجأ فريق من الناس الى الماضي هروبا من وطأة الحاضر وخوفا من الآتي • واتضح أن الغاء الحاضر والمقبل نوع من الموت فى الحياة ، ونفـذ بعضهم ، ومنهم شعراء ، بتصميم ودأب الى المستقبل مستغلين احداث الماضي ومستفيدين من كل تجاربه •وكان ان ظهرت في بلادنا نتيجة للتمزق الزمني بين الابعاد الثلاثة محاولات أدبية للحاق بالركب والتشبث بالزمنية الحديثة وملاءمة الفكر لمتطلبات العصر •

والزمنية ليست مقياسا وحيدا للحكم على شاعر وقدرته الابداعية وانما هي توضيح لموقفه ازاء الاشياء ومدى تفهمه للحضارة ولدور الانسان فى الحياة ، ومن خلال ذلك يمكن ان نلقي ضوءا ما على جزء من انتاجه •

ويضم هذا الكتاب مقالات وفصولا ، يجمع بينها الزمن وما اليه ، وعلاقته بالشعر ، وتأثيره فيه ، ومفهوم الشعراء لـه ، وتطويره للابـداع الانساني ، رأيت ان اقرن مانشر منها ، وهو يسير ، الى ما يماثله منهجاً ، وهو كثير ، لعلمي انه يعين على اتخاذ موقف فكري محدد ذي ابعاد زمنية واضحة ، يساعد على ظهور الوان مبتكرة من الادب لم نعهدها من قبل ، او يوحـي ببحوث نقدية لموضوعات انهكتها الدراسات الكلاسيكية •

وبدأت هذا الكتاب بمقال عن الفعل ورد الفعل ، اعتبرته مدخلا ، واتبعته بتعليقات واقتباسات مستمدة من « ملحمة جلجامش » التي تمثل أقدم مانعرف من انطلاقة الانسان بحثا عن ألغاز الزمن المبهم ، تتالت بعدها الموضوعات التي تناولت الزمنية عنـد قسـم من الشعراء العرب ، عبر التدرج التاريخي ، ثم انتهيت بالادب المتكامل والاداء المسرحي ، مؤملا ان يدفع هذا الكتاب ، فى ضوء الزمنية الحديثة ، بعض الادباء والشعراء الى الفكر الزمني الذي يلائم المسرح ويثريه بنصوص جديدة ، لأنه اعمق ما يمكن ان تقدمه أمة ادبا وفكرا ، وبدون مفهوم واضح للزمنية لايمكن ان نبدع نوعا من الدراما فى اشعارنا فنبعدها عن التقريرية السائبة او التغني بمواجد الشاعر الرومانسية الحالمة .

ولكل انسان زمنه الخاص ، وعليه ان افتقده ، أن يصنعه ، والشاعر اذ يعبر عن ذالك الانسان ، فردا عبر النوع ، تضيع قدراته ومواهبه وتضطرب مواقفه وآراؤه ، دون زمنية متميزة وفهم واضح لها ، والركود يعني الموت ، والتغيير اساس الحياة ، وبين هذين الحدين يلعب الزمن لعبته العجيبة ، والحركة والتبدل قطبا هذا الكوكب الارضي ، ولا يليق بالانسان الذي هو احسن مخلوق فيه ان يتصف بالخمول والركود فيعطل اثمن ما يملك : العقل .

كلية الآداب ـ بغداد **جلال الخياط**

الفعل ورد الفعل

يحكم الوقت [1] مظاهر حياتنا ، في كثير من الاحيان ، ويفسرها بدقة متناهية ، فى العلم والفن والسياسة والاجتماع ، فهو مقياس رائع يفرق مابين الحضارة والتخلف والغباء والذكاء والخطأ والصواب وما بين الفن والهذر ، ويمكن ان نخضع له مايضني افكارنا من تساؤلات دائمة[2] •

والناس في ضوء الزمنية اصناف ، منهم : اللاوقتيون الذين يعيشون خارج الزمن ، دون ان تؤثر فيهم حدوده وابعاده ، وهم القطيع ، اتخذوا اشكالا من التفكير بسيطة ومحددة فتشبثوا بها ولم يحيدوا عنها ايثاراً للعافية الفكرية واطمئنانا الى الكسل العقلي وتاكيدا للذات المتهاوية ، يولدون وينمون ويتكاثرون ويموتون آلياً ، فكأنهم يؤمنون بالزمن المعكوس [3] ، ويتعشقون الماضي دوما ، فى اكثر حالاته جمودا وتحجرا ، لاحاضر لهم ولا مستقبل ، ولا تطلع ولا طموح ، ولا اهتمام ولا هموم ، وما اكثرهم • ومنهم الذين اتفق توقيتهم الذهني بزمنية واقعية صائبة فاستفادوا من اروع ماقدمه التراث الانساني ، لا ليجمدوا عليه بل ليطوروه ، وليكون قوة دافعة تسهم فى صنع الحاضر[4] • وفريق ثالث نفذ الى الزمن وسبقه وحاول ان يتعداه ويتجاوزه بمراحل تختلف بين شخص واخر ، مؤمنا بمبدأ اللارجعة[5] ، وما اقلهم ، ويضم هذا الفريق العباقرة والمفكرين والرواد والمبدعين والمجانين والمنتحرين ، سلبا وايجابا ، الاصليين فى هذا وذاك ، دون ان يطرأوا لسبب خارجي أو تلف عضوي او ارتباك اجتماعي •

ووقع تحت وطأة الاضطراب فى التوقيت كثير من الضحايا ، فى كل زمان ومكان ، وانتحر كثيرون وانحسر فريق الى المصحات العقلية ، ومن اكثر هؤلاء الضحايا عذابا : الشعراء الحقيقيون ! واستطاع اصحاب المواهب ان يبدعوا وان يقدموا للبشرية اعمالا عظيمة ، ومنهم بيتهوفن الذي كان يقرع الزمن بتآليفه الموسيقية الهادرة ، مخالفا التوقيت السابق المألوف • وجاء هتلر بتوقيت جنوني سريع فأراد ان يسحق القرن بسنة ، والسنة بيوم ، واليوم

بدقيقة ، وان يقلب في ثوان وجه هذا الكوكب الأرضي ، وان يمحق بجملة صاخبة في خطبة تاريخاً بأسره ، وشعوبا كاملة بكيانها ، وسحقت الزمنية هتلر ولكنه خلف بحربه الشعواء زمنية جديدة في انحاء هذا العالم مازالت تلفنا بدوامتها تشتتا وتشنجا وانفعالا وانبهارا .

واخطأ قسم من الشعراء القدامى والمحدثين التوقيت فى نظمهم القصائد التي كانت تمثل ردود افعال تفتقد فعلا آنيا او سابقا وتتطلع الى فعل حاصل بعد فترة النظم . فقصيدة المديح كان الشاعر يكتبها وذهنه يدور فى دنيا الممدوح واثر القصيدة فى نفسه ومقدار الجائزة والاعطية [٦] ، وقصيدة الرثاء تتساءل فى وقت نظمها عن الدموع والتأوهات والاحزان التي ستثيرها حين القائها ، وقصيدة المناسبة تحلم بجو عاصف من التصفيق والاثارة والاستعادة والامجاد والنفعية .

كان الشاعر ينظم قصائده للاخرين ، فى كثير من الاحيان ، بمعزل عن نفسه ، ولذا كانت اشعاره وسيلة وتسولا وتوسلا ، غايتها اثارة الحماس او الاعجاب او الحزن ، وكانت تمثل رد فعل لفعل خارجي غير حاصل الا بعد وقت نظم تلك القصيدة من منح اعطية او تصفيق جمع ... الخ ، وكان الشاعر عاملا باجر ، مادي او معنوي ، له واجب معين لايحيد عنه ، فى عالم منغلق محدد ، ولهذا السبب بالذات ظل يعيش لنفسه منعزلا وحيدا ، منفذا ومتلقيا ، يقلب همومه الشعرية بأسى .

وقصيدة الغزل ، فى اكثر الاحيان ، تمثل رد فعل لفعل لم يحصل أبداً ، تفتقد التجربة ، مبعثها الحاجة الغريزية ، وقوامها الوصف الحسي لعينين أو خدين أو شفتين ، وافصاح عن تأوهات الشاعر المستمرة . أما الحب بمعناه الحقيقي ، والتجربة الكامنة فيه ، المثيرة لاعمق ما في الشعور الانساني من جذل غامر أو توحد لا مثيل له ، فقد كان افعالا ضائعة وجدت لها ردود أفعال مزيفة تتمثل في أكثر الاوصاف الغزلية فى شعرنا القديم والحديث ، ويشكو الشعراء ويبكون ويتأوهون ويتحرقون لحب لم يعرفوه أو حبيب لم يروه ! أليست اعمالهم هذه ــ اذن ــ ردود أفعال تتوسل افعالا ؟ !

ولم يكن اكثر الشعراء يتطلعون الى المستقبل الا فى دوائر الافعال التي يتوقعون ان تبرز بعد تلك الردود ، ولايعني الوقت عندهم شيئاً ذا خطورة ،

فالاموات لايعيشـــون اللحظة الحاضرة ، وفقدوا القدرة على التطلـــع الى المستقبل ، والاموات الاحياء يحيون تجارب مضت واندثرت ، دون أن تحملهم على تأصيل تجاربهم الحاضرة والمقبلة ولايفكرون فى عالم الفن الا بمنطقية رياضية ، أو بنفعية مقصودة أو مدروسة ، فمن من الممدوحين يجزل العطاء ؟ واين من تثيره هذه القافية أو تلك ، يستعيد ويستحسن ؟ ردود أفعال هؤلاء الشعراء تتخذ من الوقائع الحاصلة فى الماضي جواً يلف ابعادها وتطلعاتها وهمومها ، لم ينفذوا الى المستقبل ولم يسبقوا النماذج الموروثة أو يبشروا بقيم جديدة ، ولم يتصدر الفعل عندهم رد الفعل مع توقيت طبيعي مابين هذا وذاك ، وافتقدت نماذجهم الصدق الادبي وأحيطت بهالة من الانفعال الكاذب والمبالغات المقيتة ، وخير لهم أن يفقدوا الذاكرة لمدة موقتة ولهم أن يستعيدوها بعد ذلـــك لتمتزج فى أذهانهم الازمنة بأبعادهـــا الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل [٧] ، ومن يدري فقد يبحثون عن بعد رابع ؟ !

كان التوقيت لايعني شيئاً بالنسبة الى هؤلاء الشعراء ، فهم يعيشون فى بحبوحة من الزمن المنبسط ، لاتكثيف ولا تحديد ، والمسؤولية فيه أمر غريب ، ولم يكن الزمن يعدو بهم فى سرعة هائلة الا حين يمتشقون الاقلام ليلخصوا الاحداث الجارية او التجارب الكبيرة او الافكار المعروفة بأبيات شعرية موجزة ، تسقط الظلال وتجهض التفصيلات التي تهيء للقارىء الجو الشعري بعوالمه اللامتناهية ، وبعد ذلك التلخيص يعودون فيقعدون فى عوالهم الكسلى حقباً وأجيالا !

والفرق بين الشاعر المبدع والشاعر المتخلف يكمن في موقفهما ازاء الزمن وصدور ردود أفعال عندهما عن افعال حقيقية او مفتعلة .

تغير التوقيت ، اذن ، في الشرق وفـــي الغرب حين جـــاءت الثورات والحروب والاحداث الكبيرة بتلك الضراوة الفكرية الواقعية التي كثفت حياة الانسان الى اضعاف مايعيشه عداً وتفصيلا على التقويم .

وساعدت المخترعات الحديثة على التكثيف الزمني وعزلت من امتد بهم الزمن واستغرق اغفاءات طويلة تحت الشمس ، عمن اتحدوا مع الزمن بتوقيته الصائب فقدموا للبشرية خدمات طبيعية ، او عن اولئك الذين سابقوا الزمن

بتحد وتصميم فنفذوا الى المستقبل بتطلعات رائعة مبشرين بقيم شعرية جديدة فى عالم الانسان الاتي •

وقام بعض الشعراء المحدثين بعملية اتحد فيها الفعل برد الفعل حين عبروا عن تجربة أو احساس او موقف وحين طمحوا الى تغيير وجه العالم الثابت ، واختلف التوقيت عندهم فى التفكير والتوقد الذهني عن المجال المنبسط الذي يجدون انفسهم فيه ، غرباء ومنزعجين ، وتكمن مأساة هؤلاء الشعراء فى التوقيتين المختلفين المتضاربين ؛ وتتمثل – تعبيرا – فى الرمز الذي يقود اجواءهم واحلامهم وتطلعاتهم الذكية فى عالم الجبور الزمني الذي يعيش فيه الناس اشباحا متحركة وظلالا باهتة •

ولن ينحسر الرمز عن القصيدة الحديثة مالم تنسجم احداثنا المعاصرة مع المستوى التوقيتي السريع فى ذهنية الشاعر المحدث ، وسيبقى هذا الشاعر ضحية للتوقيتين المتباعدين والصراع القوي بينهما ، فى معركة التخلف والتقدم، ومحاربة الابداع باشكاله المختلفة الكامنة والظاهرة ، وسيبقى الاغراق في الرمز مسيطرا حتى ينتهي على يد موهبة عالية تأتي فتقتلع الجذور وتهدر النسوغ ويتحد عندها التوقيت الخارجي بالزمنية الذهنية،وتعلن بجرأة وتصميم ان الفكر المحدد ليس من سمات هذا العصر وان الاحتكارات الادبية والعوالم المغلقة فى دنيا الفن قد تعفنت وان هؤلاء الذين لايحبون ان يعكروا صفو الحلم الدائم واغفاءة الركود الفكري سيطردون من رحاب الفن ومظانه ، يصمهم العار بانهم اموات أحياء لاتنتظم افكارهم الزمنية المتوقدة •

ومأساة الشاعر التقليدي تكمن في التوقيت المنبسط والاجواء المحددة تبعا لظروف عصر ثقافية مضت وانقضت وأصر ان يتبناها وان يعيشها فى الوقت الحاضر ، والشعر عنده ضرب من عقل ، ومحنة الشاعر الحديث تنحصر فى التوقيت المكثف والانفتاح الانساني المتمثل في الثقافات القديمة والحديثة ، الوافدة والمكتسبة ، فاختلف توقيته عما هو حاصل فى مجتمعه والاجواء المحيطة به ، والشعر عنده ضرب من جنون •

فما دام كلا الشاعرين يعاني الازمة ذاتها بحديها المختلفين ، مضيا وقدما ، عقلا وجنونا ، انبساطا وتكثيفا ، فلم لايبحثان عن توقيت يجعل الفعل يسبق

رد الفعل دون ان يمتزجا ودون ان يسبق الثاني الاول • لقد فرق بينهما الفكر والموقف ويبدو انهما لن يلتقيا • آثر الشاعر الاول ان ينأى بنفسه عن الزمن ويبتعد فينجو من الصراع الذهني الدائب الذي يميز الانسان المعاصر بين مخلوقات هذا العالم الارضي •

ان شعر الخطابة ورد الفعل المطلق لايستقيم بنفسه دون سامع او ممدوح او مصفق او مغن ، فاذا اختفى الممدوح ، وقد فعل [8] وانحسر المصفق ، وجد الشاعر نفسه متخلفا ما لم يبحث عن توقيت جديد وعن مضامين تنسجم معه ، وهذا ما حصل عند فريق من الشعراء ، حين اختار غيرهم العيش فى غيابات الماضي ، فاذا خففنا عن الشاعر الجديد التوقيت الزمني الجامح ، وانتشلنا الشاعر التقليدي من رجوعيته وعيشه فى غير عصره ، وممارسته اللاشيئية السائبة ، وانبساطه المتمتع بشموس ازلية ، استطعنا ان نحملهما على توزيع شعري جديد ، والصراع بينهما عبث لايستسيغه الفن ، وهراء لايرتفع الى مستوى القضية ، وان كان مظهرا اجتماعيا حتمته الظروف •

---

(١) نشر هذا الجزء في مجلة الاداب ، العدد ٧ ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢٢ وما بعدها ، بعنوان : « الشعر والزمنية » .

(٢) الاغريق القدامى اعتبروا الزمن تهديدا متصلا لحياتهم ، وكانت العقائد الاورفية (نسبة الى اورفيوس الذي ذكر احكامها في اشعاره) تصور الزمن منذ القرن السادس قبل الميلاد في صورة كائن مقدس هو الذي خلق النار والهواء والماء ، ويصف ارسطوطاليس الزمن بأحكم الحكماء لانه يكشف كل شيء ، ويرى سولون انه يظهر الحقيقة ، اما سيمونيدس فيجعل له اسنانا تمزق كل شيء اربا اربا ، ويقول عنه ثيوجينيس انه يكشف الغطاء عن كل شيء ، ويرى يوربيدس ان الزمن والد العدالة والبلسم الذي يداوي الجراح ، ويذهب سوفوكليس الى انه يلد الايام والليالي . ينظر : الزمن في التراجيديا الاغريقية ، لدي روميلي ، عرض وتحليل د . محمد عواد حسين ، عالم الفكر ، المجلد الاول ، العدد ٤ ، الكويت ١٩٧١ ، ص ٣٠١ وما بعدها .

(٣) الكون النقيض لايمكن للانسان ان يدركه او يراه ، بسبب الزمن المعكوس او النقيض ، فلو سافرنا صباح هذا اليوم فاننا سنرجع « البارحة » وهذا مايسمى بالزمن المعكوس ، بالنسبة الى زمننا طبعا ، وهو يمثل ظاهرة طبيعية في الكون النقيض ، فهناك سيكون ماضينا مستقبلا عند

مخلوقات الكون النقيض، ومستقبلنا ماضيا، من مقالة مترجمة في الف باء بعنوان « هل هناك كون آخر » ، العدد ٢٦٠ ، بغداد ٢٣ اب ١٩٧٣ ص ٢٣ .

(٤) تبدو لنا خبرات الفرد منسقة في سلسلة من الحوادث ، وتبدو لنا كل حادثة في هذه السلسلة كأنما هي منتظمة تبعا لمعيار الـ « قبل » والـ « بعد » أو المتقدم و المتأخر أو السابق و اللاحق . وبالتالي فلكل فرد « أنا ـ زمان » أو زمان شخصي أو ذاتي . وهذا الزمان لا سبيل الى قياسه ، ينظر : انشتين والنظرية النسبية ، د. عبد الرحمن مرحبا ، بيروت ١٩٦٩ . ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٥) مبدأ اللارجعة : مجرى الزمن له اتجاه واحد هو الاتجاه الامامي ، ولا يرجع الى الوراء ابدا . ومبدأ اللارجعة هذا يسيطر على حركة التطور في الكائنات جميعا وتسود فيه فكرة الاحتمال ، وهذا هو السبب الذي يحول دون نكوص المجاميع المعقدة (ومنها الانسان) وتقهقرها عبر الزمن، واذن فمجرى حياتنا ومجرى زماننا الذي لايقهر هما حالة خاصة من حالات مبدأ من مبادىء فيزياء المجاميع المعقدة ، ينظر المصدر السابق ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٦) ينظر للمؤلف : التكسب بالشعر ، دار الاداب بيروت ١٩٧٠ .

(٧) قال ابيقور منذ أكثر من الفي عام : « لاوجود للزمان بذاته ، بل وجوده بالاشياء المحسوسة وحدها ، تلك الاشياء التي نشأت منها فكرة الماضي والحاضر والمستقبل . ان الزمان لا يمكن تصوره بذاته مستقلا عن حركة الاشياء او سكونها . ينظر انشتين والنظرية النسبية . ص [illegible]

(٨) ينظر : التكسب بالشعر .

الرحلة الاولى

منذ ان استوى الانسان على قدميه ، يصارع الطبيعة والوحوش ، ويلتحف الغبراء ويقبع فى الكهوف ، ويمثل عصورا حجرية ، توقف في بعضها الزمن وامتد حتى الوقت الحاضر ، وهو يفصح عن مخاض فكري هائل لم ينتج الا شيئا يسيرا من الحضارة بعد الاف السنين[١] ، فليس التأمل فى قضايا هذه الدنيا امرا حديثا ، ولغز الحياة يورث الحيرة ، « وما فائدة هذا الوجود المبطن باللاوجود »[٢] ويقف الانسان مقهورا امام الموت : « الذي افزعه حتى هام على وجهه في الصحارى »[٣] ، « كان فى الدنيا لكي لايكون »[٤] .ويود لو يرحل ، يكتشف ، فلعله يصل الى سر اسرار الخلود :

الى اين تسعى ياجلجامش
ان الحياة التي تبغي لن تجد
حينما خلقت الالهة البشر قدرت الموت على البشرية
واستأثرت هي بالحياة
اما انت ياجلجامش ... فكن فرحا مبتهجا نهار مساء
واقم الافراح فى كل يوم من ايامك
وكل واشرب وارقص والعب
واجعل ثيابك نظيفة زاهية
واغسل رأسك واستحم في الماء
ودلل الصغير الذي يمسك بيدك
وافرح الزوجة التي بين احضانك
وهذا هو نصيب البشرية[٥] .

ولكنه لم يقتنع بهذا النصيب : « فقد ابصر الاسرار وعرف الخفايا وجاء بأنباء ازمان ماقبل الطوفان »[٦] ، ولو فعل لما تجاوز حيوانيته الى مستوى انساني ارقى واحسن واتم ، فواصل الرحلة « وكان دوره مصارعة مصيره

كأنسان ... يريد الاستمرار فى لعبة الوجود . وهو مع علمه بأنه لايتخلص من موته لا حين يتخلص من حيته يفضل غريزيا ان يعيش محنته على ان بموت خلاصه »[٧] . ويبقى السؤال الموجع المضني يقض مضاجعه ، وتبدت النهايات المحتومة واضحة جلية :

ياصديقي ، من ذا الذي يستطيع ان يقهر الموت ؟
فالآلهة وحدهم هم الذين يعيشون الى الابد
اما البشر فايامهم معدودات
وكل ماعملوا عبث يذهب مع الريح [٨]

الا ان ذلك الانسان الموغل فى القدم يرفض ، ويغضب ، ويثور « ثورة اسبارتاكوزية على الافكار السيدة للتخلص من عبوديتنا لامواتنا وانفسنا»[٩]، ولاتكون لثورته حدود وتتسلمها الاجيال شعلة متوهجة عبر القرون ، ولكنه لايجد الجواب « فالانسان محكوم عليه بالاعدام منذ ساعة الولادة . وكل حياته ، بكل مافيها من غرائب ، ماهي الا فترة انتظار ساعة التنفيذ »[١٠] ، وتصرخ عشتار : « لقد عادت الايام القديمة طينا »[١١] :

فاذا لم تخلق لي الثور السماوي فلأحطمن باب العالم السفلي
وافتحه على مصراعيه
وادع الموتى يقومون فيأكلون الاحياء[١٢] .

ولكن تهديد الربة عشتار اشبه بنزوة انسان لايقوى على الحياة الا بالحلم والخيال ، وعبثاً يحاول ان يحيلهما الى واقع وحقيقة :

اجل : في مضجعي يقيم الموت
وحيثما اضع قدمي يربض الموت[١٣] .

لماذا ؟ ويضنيه السؤال فيركب الاهوال ليقتل الموت ، ويفك عن الانسـ اقانيمه الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل . وتنتهي حياة صديقة انكيدو « كذلك شأني . سوف انام مثله فلا اقوم من مكاني . حتى نهاية الزمان »[١٤] وتستمر رحلته عبر غابة مسحورة ، مسافتها عشرة آلاف ساعة من كل الجهـ وزمجرة حارسها كأنها عباب الطوفان ، تنبعث من فمه النار ، ونفسه مو

الزؤام[١٥] ، وليس لاحد ان يقطع تلك الغابة المليئة بالوحوش والعفاريت الا اذا كان انسانا يبحث حقا عن خلاص : « ان ايام البشر معدودة ... فدعني اسر امامك وليناديني فمك : سر ولا تخف »[١٦] ، ويسقط الحارس « رمز الشر على الارض[١٧] » ، وتزول الجبال ، وتذوي اشجار الارز ، وتقل مياه الموت العميقة جلجامش الى حيث يريد ، الى الرجل الحكيم القابع فى اخر الدنيا الذي قهر الموت وعرف سر الوجود :

ان الموت قاس لايرحم
متى بنينا بيتاً يقوم الى الابد ؟
متى ختمنا عقدا يدوم الى الابد ؟
وهل تبقى البغضاء فى الارض الى الابد ؟
وهل يرتفع النهر ويأتي بالفيضان على الدوام
والفراشة لاتكاد تخرج من شرنقتها فتبصر وجه الشمس حتى يحل أجلها
ولم يكن دوام وخلود منذ القدم[١٨] .

فما العمل ؟ ويكشف الشيخ بعد محاولات طويلة عن سر الخلود الكامن فى عصير نبات يحيا تحت الماء : « فاذا ما حصلت يداك على هذا النبات وجدت الحياة الخالدة »[١٩] ، ويسعى اليه جلجامش حتى يمتلكه : « وانا سآكله في اخر ايامي حتى يعود شبابي »[٢٠] ، الا انه لايريد ان يستأثر به وحده ، يود ان يشرك معه الناس جميعا ، ولم تكن دوافع رحلته فردية او انانية ، اذ نجده « يحمل بين جنبيه مشكلة البشرية كلها »[٢١] ، وتمثل ملحمته هذا العبء بشكل هادف ، ولكن الحية تشم شذى ذلك النبات فتختطفه وتنزع جلدها ! فيبكي جلجامش ولايحقق لنفسه مغنماً ، ولوجوده خلوداً ، وللبشرية بقاءا ، ويظل تحت طائلة الموت ، فيأسف ويحزن ويبكي ويقنع بالخلود الادبي : « فاذا هلكت اكون قد صنعت اسماً لنفسي » [٢٢] ، فهل اقتنع فعلا ام أنه مات وفي نفسه حسرات ،لم ينفع معها المجد الارضي ، وكان « أمجد الرجال بين

الرجال » [٢٣] أول رواد طريق الكشف عن سر الزمن العاتي الذي يختم كل تطلعات الانسان بالمبهم ، ويلغي هذا وذاك بالموت :

ولكن ياجلجامش لم ذبلت وجنتاك وامتقع وجهك ؟
وعلام عمر الحزن قلبك وتبدلت هيئتك
فصار وجهك أشعث كمن عانى الاسفار الطويلة ؟
ولم لفع وجهك الحر والقر وهمت على وجهك
فى الصحارى [٢٤] .

ويأتي الجواب مليئاً بالحزن والأسى :

كيف لا تذبل وجنتاي ويمتقع وجهي ويغمر الحزن
قلبي وتتبدل هيئتي ويصير وجهي
أشعث كمن انهكه السفر الطويل ويلفح وجهي
الحر والقر ،
وأهيم على وجهي فى البراري ، وان خلي وأخي الاصغر
الذي طارد حمار الوحش فى البرية واصطاد النمور
فى الصحارى ... وارتقى أعالي الجبال ... وأمسك
بثور السماء وقتله ... قد ادركه مصير البشرية
فبكيته ستة أيام وسبع ليال
ولم أسلمه للقبر حتى وقع الدود على وجهه
لقد أفزعني الموت ... فالنازلة التي حلت
بصاحبي قد جثمت بثقلها على صدري
وأقضت مضجعي حتى همت مطوفا فى الصحارى
ولذا تراني قد جئت اليك ... [٢٥] .

« انها قصة انتصار بشكل اندحار . انتصار على الخوف وعلى الفردية ، ولو آنها اندحـــار امام الخلود . مصالحة مـــع الحياة بشكل ثـــكل الحياة .

مصالحة الوجود مع العدم . فرحة بشكل مأساة ، ومأساة بشكل عزاء » [٢٦] ، ويسهم البشر في اتمام الرحلة التي بدأها جلجامش ، ويكون للشاعر العربي في تلك الرحلة نصيب .

---

(١) ورد في مقدمة الدكتور طه باقر للمحمة جلجامش : « بعد ان قضى الإنسان الشطر الاعظم من حياته يعيش حياة بدائية فيما يسمى بعصور ماقبل التاريخ (التي استغرقت ٩٩٪ من حياة الانسان) ، دخلت البشرية في أخطر تجربة وامتحان ماتزال تعانيهما بانتقالها الى طور الحضارة » ، تنظر ملحمة جلجامش ، منشورات وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٧١ ، ص ٧ .

(٢) عبدالحق فاضل ، هو الذي رأى (ملحمة فلقميش) ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٨٦ ، دراسة وترجمة شعرية .

(٣) باقر ، ص ١١٤ .

(٤) عبدالحق ، ص ٨٦ .

(٥) ، (٦) باقر ، ص ١١٥ ، ٥١ .

(٧) عبدالحق ، ص ٨٦ ، ٨٨ .

(٨) باقر ، ص ٧٦ .

(٩) ، (١٠) ، (١١) عبدالحق ، ص ١٦٢ ، ٨٦ ، ١٣٠ .

(١٢) ، (١٣) باقر ، ص ٩١ ، ١٤١ .

(١٤) عبدالحق ، ص ٢٣٩ .

(١٥) باقر ، ص ٧٥ .

(١٦) ، (١٧) عبدالحق ، ص ٥٦ ، ٥٤ .

(١٨) ، (١٩) ، (٢٠) باقر ، ص ١٢٦ ، ١٤٣ .

(٢١) ينظر عبدالحق ، ص ١٤٩ ، ١٥٧ .

(٢٢) ، (٢٣) المصدر السابق ، ص ٥٦ ، ٢٩٠ .

(٢٤) ، (٢٥) باقر ١١٧ ، ١٢٥ ، « طرأ تصرف بسيط في نقل بعض نصوص الملحمة أملته طبيعة تجميع الافكار واختصار بعض المقاطع » .

(٢٦) عبدالحق ، ص ١٥٨ .

هموم ليست معاصرة

وينحسر شاهد هذا العصر الى هموم غريبة ، بعيدة ، منفية ، هي هموم انسان كل العصور ، ويتساءل وهو فى القرن العشرين : كيف كـان الشاعر الجاهلي يفكر ويعمل ويمضي وقته الطويل عبر هذه الصحراء المترامية الاطراف وفي أربع وعشرين ساعة تتكرر يوماًبعد يوم ؟ ! هل كان يحس بمشكلة من لامشكلة له ؟ ! هل استطاع أن يكون خارج ذاته ، بعيدا عن المعاناة ، طيلة يومه ، كما استطاع الانسان فى هذا القرن ان يبدع ألف لعبة ولعبة لينزع نفسهمن نفسه فيذهل عنها فترة ثم يرتد اليها ، غير مختار ، فتبرز مشكلة وجوده ، كفرد ونوع ، بوضوح دام مأساوى مليء بالشرور والحروب وخيبة الامل والتشويه الانساني ؟ !

وأسهم الرجل الجاهلي فى رحلة البشرية عبر الاجيال المتتالية وأدى الشاعر دوره فى تلك الرحلة بشكل مثير ، وقدم لنا خلاصة عصره فى أشعاره التي دلت على تفكير طويل مضن ، فهل انتهى به تفكيره الى ان الدهر خالد والانسان فان : « بلينا وما تبلى النجوم الطوالع » [١] ، فاستسلم للقدر وعاش احداث يومه ببلاهة ؟ ! أم أراد أن يبحث وان يكتشف ، ولم يملك القدرة على تعطيل مسيرة الافكار التي تدور في مخيلته فيمارس الموت فى الحياة ، وكان يعاني ، واتسمت معاناته بلون خاص ، تمر الايام ، وتضنيه النمطية المتتالية ، ولا تأخذ الرحلة عبر الصحراء ، والغزو ، والمفاخر ، والهموم اليومية الاخرى ، 'الاجزءاً يسيرا من وقته [٢] .

فما موقفه من الزمن وأبعاده الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل [٣] :

وان غداً وان اليوم رهن   وبعد غد بما لاتعلمينا

فكيف يمكن ان يتطلع الى مستقبل زاهر مختلف عن البعدين الزمنيين الآخرين وهـو لايعرف عنه شيئاً : « ولكنني عن علم ما فى غد عم » [٤] ، ورتابة الحياة تبعد عنه التجاوز والانطلاق الى المستقبل والترحيب بالآتي ،

فليتشبث ، اذن ، بالحاضر ويتمسك به فلا يفلت ويعانقه فلا ينحسر الى الماضي ولكن ماجدوى هذا الحاضر ، ومن يقدر أن يحكم الزمن ؟

ويعود الى الماضي ، ولاشيء غير الماضي ، كلعبة مارسها الانسان فى كل مكان وزمان ، ليبعد عنه وطأة الحاضر والمستقبل ، ليهرب من ذاته ، وليغذي النزيف الذي يجري فى شرايينه ويتخذ شكل ذكريات تلح عليه أن يموت فى ظلالها ، فيتخلص من واقع متعب ومن مستقبل يتخيله مرعباً !

ويصبح الماضي احدى لعب الانسان الجاهلي للابتعاد عن واقعه الذي يبدو له فاقدا معناه بين ما سبق وما سيأتي ، ولكن الماضي يعني الفرقة واللوعة والحزن [٥] :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا اهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

وبالرغم من ذلك أحرق الشاعر الجاهلي البخور للذكريات ، هي البديل . آمن بالماضي وأسرع حاضره الممل ليصبح جزءاً منها ، والا فما معنى هذا الشوق والهيام الطويل ساعات وأياما ببقعة من ارض ؟ كيف تفسر وقوف الكبير بالأطلال[٦] ، والتغزل بمكان ينسى معه الشاعر نفسه وحاضره فيقبل الاحجار ويلثم التراب ويستعيد احداثاً مضت[٧] :

فما وجدت بها شيئا الوذ به الا الثمام والا موقد النار

انه رفض للرحلة الدائمة ، والتنقل المستمر ، والمستقبل المجهول ، يؤرقه الحنين الغريزي الطاغي الى مكان ثابت ، ووطن واحد ، وحياة مستقرة[٨] .

وتغيم الرؤى وهو يتعبد تلك الارض المحدودة ، النائية ، موئل الذكريات ، فلا يكاد يتبين الاشياء[٩] :

اقول والنجم قد مالت أواخره الى المغيب تثبت نظرة حار
ألمحة من سنا برق رأى بصري ام وجه نعم بدا لي ا م سنا نار
بل وجه نعم بدا والليل معتكر فلاح من بين اثواب واستار

وهكذا يكون العزاء ... ولكن الشاعر يدرك قبل غيره انه يخدع نفسه وان الحاضر والمستقبل فقدا رونقهما ، ولم يبق لديه سوى الماضي ، وقسوة الحاضر ستتحول الى ذكريات جميلة ، فيما بعد ، فليتحمله لان الحلم لايصلح

كبديل ، والتنافس الحاد الذي حصل بين الابعاد الزمنية الثلاثة ، في داخل الانسان ، خرج منه الماضي منتصرا مكللا بالغار ••• ولكن العيش فى الماضي نوع من الموت في الحياة ، فما العمل ؟

غادر امرؤ القيس خدر عنيزة وترك الخمر والصيد وذهب وراء ثأر ابيه واراد ايضا ان يثأر لنفسه من واقع حياته فمات على جبل تركي بعد ان طوف في الافاق ورضى من الغنيمة بالاياب(١٠) وتنقل الاعشى بين هذا الحي وذاك يغني ويشرب ويمدح ، في رحلة خرج منها المحلق غانما(١١) ، ولم يهمه شيء من امر هذه الدنيا ، وشغل عنترة بلونه وبحبه وبطولاته ، وتذكر عمرو بن كلثوم ايام لهوه ببعلبك ودمشق ، وهو يفخر بأمجاده وشجاعته وموقفه من عمرو بن هند ، وتنقل النابغة بين المناذرة والغساسنة ، ووصف المتجردة واعتذر ، وقتل عدي بن زيد فى سجن النعمان بسبب وشاية(١٢) ، وشكا عمرو بن قميئة من الزمن واهلكه التأمل فيما لايستطيع له تبريرا وتفسيرا(١٣) ، وثقف زهير شعره ، ونذر نفسه مدافعا عن السلم مشيدا باعمال رجلين عظيمين استطاعا ان يوقفا حربا دامية ، واطرى دريد بن الصمة الصبر وعدم التشكي من صروف الزمن وادعى ان رهطه قد قسموا الدهر شطرين(١٤) وبكت الخنساء اخاها حتى استحال الشعر دمعاً ، وهجا الحطيئة امه وامرأته وبنيه ودهره والناس اجمعين(١٥) •

ولم يكن تناول طرفة للمسألة : «ولولا ثلاث»(١٦) ، جذريا او فتحا فى عالم الزمن ، فهو لايهمه من الحياة ومشاغلها الا المراة والكأس والسيف : « هن من عيشة الفتى » ، واي انسان يستطيع ان يخبرنا بما يبهجه في هذه الدنيا ، واعتقد ان الناس يشاركون طرفة فى واحدة او اكثر من ثلاثيته ، ولكنه استطاع ، فى شعره ، ان يعبر عن شخصية متميزة نافذة الى الاشياء واضحة الرؤى •

ويعانق الزمن الصحراء ، بتشكيلة رائعة تعكسها الشمس بلورا متوهجا ، ويحاول الجاهلي ان يفك عنه هذا المزيج المتماسك فلا يستطيع ، وترتد المسألة الى شوق شديد نحو مستقر من الارض ، ويتيه به الزمن عبر

رحلات طويلة لاقرار لها ، وتشتد المعاناة ، ويكون الماضي هو البديل ولكنه لايحمل سوى الذكريات : وبين الذكرى والحلم والرحلة الدائمة عاش ذاك الانسان الذي وقف واستوقف وبكى واستبكى وترك لنا اثرا باقيا مازلنا نحكي عنه ونتأمله .

---

(١) للبيد ، ورد في قصيدة يرثي بها اخاه أربد ، وتحوي شيئا من الحكمة والتأمل في الحياة والموت والزمان ، ينظر : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، للدكتور يحيى الجبوري ، بيروت ١٩٧٢ ص ٢٨٩ ، ومن ابيات تلك القصيدة :

بلينا وماتبلى النجوم الطوالع
وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
وما المرء الا كالشهاب وضوئه
يحور رمادا بعد اذ هو ساطع
وما المال والاهلون الا ودائع
ولابد يوما ان ترد الودائع

(٢) لاترد كلمة الزمن عند هوميروس صاحب الالياذة والاوذيسة فاعلا لفعل على الاطلاق ، ولاترد عند هسيودوس صاحب ملحمة العمل والايام اصلا ، ينظر : عرض د . حسين لكتاب دي روميلي ، ص ٣٠٢ .

(٣) من معلقة عمرو بن كلثوم .

(٤) بيت من معلقة زهير بن ابي سلمى :

وأعلم مافي اليوم والامس قبله
ولكنني عن علم مافي غد عم

(٥) البيتان للحارث بن مضاض الجرهمي ، تنظر : جمهرة اشعار العرب بيروت ١٩٦٣ ، ص ٤٨ .

(٦) للاعشى :

ماوقوف الكبير بالاطلال
وسؤالي وما ترد سؤالي

(٧) من قصيدة النابغة الذبياني الرائية التي يظن بعض الباحثين انها من المعلقات ، تنظر : جمهرة اشعار العرب ، ص ٥٩ ، ومطلعها :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار
ماذا تحيون من نؤي واحجار

(٨) تنظر : للمؤلف مقالته في الاداب : « الغربة بين الشاعرين الجاهلي والمعاصر » ، العدد ٣ ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢٩ ومابعدها .

(٩) من رائية النابغة ، تنظر الحاشية ٧ .

(١٠) يقول امرؤ القيس :

وقد طوفت في الافـــاق حتـــى
رضيت من الغنيمة بالايـــاب
أبعد الحـارب الملـك بـن عمـــرو
وبعد الخير حجـر ذي القبـــاب
أرجي من ضروب الدهـــر لينـــا
ولم تغفل عـن الصـم الهضـــاب
واعلـــم اننـــى عما قليـــل
ســأنشـــب في شـبا ظفر ونـاب

وقصة امرىء القيس مشهورة ، مقتل ابيه وتركه الخمر وطلبه للثأر وذهابه الى ملك الروم وتسممه بالرداء وموته في تركيا ، ينظر : تاريخ العرب الادبي لنكلسن ، ترجمة صفاء خلوصي ، بغداد ١٩٧٠ ، ص ١٧٤ وما بعدها ، وهناك من يشك في كل ذلك .

(١١) المحلق فقير ، لم يستطع ان يزوج بناته وقيل اخواته الا بعد ان مدحه الاعشى فاشتهر ، تنظر : العمدة لابن رشيق ، ج١ ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

(١٢) تنظر : الشكوى في الشعر الجاهلي لقحطان رشيد التميمي ، مستلة من مجلة كلية الاداب ، العدد ١٣ ، بغداد ١٩٧٠ ، ص ١٤٥ .

(١٣) يقول عمرو بن قميئة :

رمتني بنات الدهر مـن حيث لاارى
فكيف بمـن يرمـى وليس بـــرام
وأهلكني تأميـل مالســت مدركـــا
وتأميل عـام بعـــد ذاك وعــــام
اذا ما رآني الناس قالوا ألـم تكـن
جليدا حديث الســـن غير كهـام
فافنى وما افني من الدهـر ليلـــة
فلم يغن ما افنيت سـلك نظـــام

(١٤) يقول دريد بن الصمة :

قليل التشكي للمصيبـــات حافظ
من اليوم اعقاب الاحاديث في غـــد

ويريد بقوله قليل التشكي نفي انواع التشكي كلها لانهم يستعملـون القلة في معنى النفي ، تنظر : حماسه ابي تمام ، ج١ ، ط٣ ، القاهرة ١٩٢٧ ، ص ٣٣٩ ، ويقول الشاعر : الحماسة ، ص ٣٤١ .

قسمنا بذاك الدهر شــطرين بيننا
فما ينقضي الا ونحن على شــــطر

(١٥) ابراهيم بن محمد البيهقي ، المحاسن والمساوىء ، القاهرة ١٩٠٦ ، ص ٢٠٨ .

(١٦) من أبيات لطرفة في معلقته :

ولولا ثــلاث هن من عيشة الفتــى
وجدك لم احفل متى قام عــــودي
فمنهن ســـــبقي العاذلات بشـــربة
كميت متى ماتعـــل بالماء تزبـــد
وكـــري اذا نــادى المضاف محنبا
كســيد الغضا ، نبهتــه ، المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب
ببهكنة تحت الطـــراف المعمـــد

أصوات أموية

ورث الاموي عصرين ، يمكن ان يشكلا بدايتين ، تدور حياته بينهما ، وتختلط احداثهما فى افكاره وتتزاوج وتتشابك لتنتجا شخصية جديدة ورؤى متميزة وانطلاقة ذات سمات خاصة •

ان تجارب الماضين جزء كبير من موروث الاجيال المتعاقبة ، فبماذا افاد العصر الجاهلي ، بفرديته وقبليته وتنقله وانسيابه ومعاناته وزمنيته الضائعة ، ذاك الرجل الأموي • وما الذي أمده عصر صدر الاسلام بتنظيمه حياة الفرد بشرائع دينية تحكم العلاقة الجديدة بينه وبين البيئة والمجتمع والسلطة ؟ والفتوحات والغزوات والدولة الحديثة ، بكل تشكيلاتها ، هل اثرت على الشخصية الاموية فطبعتها بدور تاريخي خاص لتأخذ مكانها الطبيعي فى مسيرة التطور من العصور الاولى ، الى الجاهلية ، الى الاسلام ؟ وكيف لعب الاموي دوره ؟ وهل كان ذلك الدور يتلاءم والعصرين السابقين ؟ وماذا قدم ؟ وما موقفه من الانسان ومشكلاته ؟ ومن الدهر وزمنيته ، والبداية والنهاية والسعادة والالم ؟ هل استطاع ان يعبر عن معاناته ؟ وهـل كان رافضا لواقعه يتطلع الى مستقبل افضل بديل يجرف معه تبعات الحاضر ، ام رأى الاصالة فى ذلك الواقع فما اراد له تغييرا ؟ وهل احس فعلا بان مسؤولية عصرين وعهدين وتجربتين ضخمتين قد القيتا على عاتقه ؟ وما المخاض الذي نتج من التقاء هذين العصرين فيه ؟

لانجد لهذه التساؤلات اصداء واسعة فى الشعر الاموي : اول مظهر فكري يكشف عن العصر ! ويبدو ان الشاعر كان فى غفلة عن هذا الامر او انه شغل بقضايا اخرى اخذت عليه مسالك حياته وحدت من انطلاقاته التي تتناول الانسان وزمنيته ومصيره بالبحث والتأمل والتفكير •

فالانقسام القبلي والطبقي والسياسي وما تبعه من حروب ومنازعات احتل جزءا كبيرا من العقلية الاموية ، ولم تتفتح سوى ثغرات تتعدى حدود الزمن المعاصر الى أزمنة مكثفة آتية اخرى ، واذا قرأنا الدواوين الاموية نجد

ان المنازعات المتمثلة بالهجاء قد أخذت اكثر صفحاتها ، واستغرق الغزل الذي لايشل آنذاك ، في اكثر نماذجه ، الا رغبات شخصية انانية محضة صفحات اخرى ، وما تبقى منها كان مديحا ورثاء ... الخ .

فهل كان الشاعر الاموي يعبر عن مشكلات انسانية معينة ؟وهل انحصرت معاناته بحدود قضايا عصره ام انطلقت الى آفاق الحياة الرحبة ؟ ! لانستطيع ان نقرر ذلك ! فمن سمات انسان كل العصور ان يطيل التأمل في ذاته وفي وجوده ، ولكن هذه المسألة لم تتضح في التراث الشعري الاموي اذ غطتها ظلال الاحداث المعاصرة التي تشابكت فوق رؤوس الشعراء والمفكرين فما نفذوا الا من فتحات صغيرة فيها ليعودوا فيتفيأوها ، ما استطاعوا منها فكاكاً ، فقد كانت كل حياتهم .

جرير أحد شعراء ذلك العصر ، يشكو من انشغاله بالهجاء عن الغزل والتشبيب[1] ، وكانت لشكواه ابعاد أخرى في نفسه : أن يأخذ دوره كانسان مفكر يعبر عن وجوده وعصره ومواقفه . ومن الهجاء والمديح استطعنا أن نقتنص بعض افكاره المتمثلة في ابيات قليلة ، مبثوثة هنا وهناك ، فليس من طبع الليالي أن تبقي على حال : « وما تبقي الليالي من جديد »[2] ، والزمن بصروفه واحداثه المتغيرة متقلب بأوضاع مختلفة متناقضة : « والدهر ذو غير له اطوار » [3] ، وسطوة ذلك الدهر تستغرق كل طاقات الحياة ، ولا عودة للزمن الذاهب [4] :

وليس زمان بالكميتين راجعا وليس الى ذاك الزمان رجوع

والموت احد ضحايا الدهر الذي لايمكن ان يطاوله امر او قوة او جبروت[5] :

انا الدهر يفني الموت والدهر خالد فجئني بمثل الدهر شيئاً يطاوله

ويعجب من احداث زمانه وتعقد اموره وكثرة مشكلاته[6] :

هلا عجبت من الزمان وريبه والدهر يحدث في الامور امورا

والازمنة يمكن ان تباع وتشرى وتقايض[7] :

لمن الديار ببرقة الروحان اذ لانبيع زماننا بزمان

وتتضح مسألة الزمن عند جرير ، كالشعراء الآخرين ، في قضية الصبا الذي ولى والمشيب الذي حل ، فيتمنى ان تفنى الليالي التي تأخذ معها الشباب الى غير ما عودة[8] :

امسيت اذ رحـل الشباب حزينـا   ليـت الليالـي قبـل ذاك فنينـا

او يجد لقلبه من يعلله او يسقيه السلوان[9] :

ياليت ذا القلب لاقى مـن يعللـه   او سـاقيـا فسقاه اليوم سلوانا

ويفر الفرزدق من مصير حياته وعذاب آخرته ، بعد ان اطاع الشيطان سبعين سنة ، الى ربه طامعاً في غفرانه اذ يوقن ان الموت محتم عليه[10]

اطعتك يا ابليس سـبعين حجـة   فلما انتهى شـيبي وتـم تمـامي
فررت الى ربـي وايقنـت اننـي   مـلاق لايـام المنـون حمامـي

ويهدد عمر بن ابي ربيعة حبيبته بالموت والفراق ليشجعها على القرب والوصال ، فهو يستثمر المصير البشري والفناء المحتم استثمارا جيدا ليحث تلك الحبيبة ان تسقط من هواجسها الخوف والعفة والاتزان وان توافيه في مواعيده[11] :

غـداً يكثر الباكون منـا ومنكـم   وتزداد داري مـن دياركم بعـدا

وحين يذكر مامر من زمانه ينتابه الحزن ويقرر ان لقاءه بسعدى فضل واحسان من الدهر[12] :

انـني اليـوم عادنـي احزانـي   وتـذكرت مامضـى مـن زماني
ان دهراً يلف شـملي بسعـدى   لـزمـان يهـم بـالاحسـان

ويحدثنا الاخطل عن طول الحياة واستغراق الزمان لاحداثها وما يورثه من جنون وخبال[13] :

والناس همهـم الحيـاة وما ارى   طول الحياة يزيـد غـير خبـال

فالشباب قد ولى وليس له رجوع ولا لما فات مردود ، والشيب لادواء

له ، والعمر لايعـود القهقرى والنسـاء لايتمسكن بالزمن الا حين يرين رجلا قد ذهب عنه زمانه(١٤) :

يقلـن لا انـت بعـل يستقـاد له ولا الشباب الذي قـد فات مردود

هل الشباب الذي قـد فات مردود ام هـل دواء يرد الشيب موجود

انها صيحة حزن واسى اذ لاعودة للشباب ولاشفاء من الهرم ،فلتجد، اذن ، كفـه بماله مادام الموت هو المصير ، وكأنه يعيـد سـيرة طرفـة الذي رأى قبر النحام والغوي متجاورين(١٥) :

ذراني تجـد كفـي بمالـي فأنني سأصبح لا اسطيع جوداً ولا بخلا

وهكذا نجد فى ثنايا القصائد والأشعار افكارا محددة تتناول المصير والزمن الضائع والدهر الذي اشتدت على الشعراء مصائبه : «تسعسع واشتدت علينا تجاربه »(١٦) ، ولولا الهجاء والمديح اللذان استنفدا جزءا كبيرا مـن طاقات الشعراء ، وكون الشاعر معبرا عن فئة او قبيلة ، بحدود المصلحة الآنية الضيقة دون سعة وشمول ، لحصلنا فى مسيرتنا المتعبة التي تبحث عن الزمنية عند الشعراء على مادة شعرية جيدة تشكل تطورا واضحا فى سلسلة الافكار التي يتوارثها الانسان عبر العصور المتعاقبة •

---

(١) قال جرير : لولا ما شغلني من امر هؤلاء الكلاب ـ يعني ثمانين شاعرا تبادلوا معه الهجاء ـ لشببت ـ تشبيبا تحن منه العجوز الى شبابها حنين الناقة الى سقبها ، تنظر : خزانة الادب ، ج١ ، ص ٨٠ .

(٢) ـ (٨) ديوان جرير ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٩٥ ، ١٦٦ ، ٢٧٤، ٣٨٨ ، ٢٢٢ ، ٤٦٨ ، ٤٧٥ .

(٩) فؤاد افرام البستاني وجماعته ، الادب العربي في آثار اعلامه ، ج١ ، بيروت ١٩٣٤ ، ص ١٦٩ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ١٣٢ ، وقد هجا الفرزدق ابليس ، « وذهـب مرة الى الحسن البصري فقيه البصرة وقاضيها وقال له : اني قـد هجوت ابليس . فقال الحسن ، لا حاجة لنا بما تقول ، قال الفرزدق: لتسمعن او لاخرجن فأقول : ان الحسن ينهى عن هجاء ابليس . قال الحسن : اسكت فانك عن لسانه تنطق » ، ينظر : ممـدوح حقي ، الفرزدق ، القاهرة بلا تاريخ ، ص ٢٥ .

(١١) ، (١٢) البستاني ، ص ١٨٣ ، ١٩٣ .

(١٣) ــ (١٦) شعر الاخطل ، ج٢ ، تحقيق الاب انطون صالحي اليسوعي ، بيروت ١٨٩١ ، ص ١٥٨ ، ١٤٧ ، ١٧٦ ، ٢١٦ ، والاشارة الى بيت طرفة من معلقته :

اری قبر نحـــام بخيـل بمالــه
كقبر غـــوي في البطالة مفســـد

زمن النواسي

هـل استطاع ابو نواس أن يصنع زمنه الخاص ، ام سحقته الازمنة الاخرى ، واحاطت به على مر العصور أكاذيب شوهت فيه ، بعيدا عن عالم الادب ، شخصية المبدع وشاهد العصر ؟ !

عانى الشاعر من العذاب والقلق والوحدة والتفرد وانعكس كل ذلك في حياته : خمرا لا تنضب وسكرا دائما ، وفى شعره : ثورة ومرارة وشكوى تدعو الى الرثاء والحزن ، ولا يبيح لنا ما تناقلته الكتب ، صدقا او كذبا ، بأي شكل ، ان نتصوره بهلوانا مهرجا يرقص على حبال قصور خلفاء بني العباس فنفهم وقائع دنياه بتزييف تاريخي ، يطمئن بعض نوازعنا ، فعلاقته بالرشيد محدودة وموضع شك من المؤرخين ، وشكاواه من الممدوحين واضطراره الى اطرائهم والتغني بمحاسنهم تدل على فكر خصب لم يجد منفذا ومتسربا فى عصر لا يعترف بالشاعر الذي لايرهن نفسه فى هوى اولئك الممدوحين : « والله لكأني على النار اذا دخلت على الخلفاء والملوك ، لاني اذا كنت عندهم فلا أملك من امري شيئا »[٦] ، وموقفه من الأمين ، بعد مقتله ، يدل على أن الرجل صاحب رأي وموقف والتزام ، يستأهل ان يجرد من شوائب حكايات التاريخ المسلية واقوال متعاطي الادب وممتهني قتل المواهب والقابليات بالاساليب البلاغية الشائعة .

وان كانت بعض المسائل النواسية موضع نقاش واختلاف فامر واضح فيها يتأبى الجدل العقيم هو اخلاص الشاعر لنفسه وشعره وانه حاول جهده ان يتمسك بمزاج خاص فى ظروف بيئية لاتتيح له مجال التحرك الا بحدود .

واراد ان يوفق بين ذلك المزاج وأجواء عباسية معينة فتعثر ، وحاول ان يكون مثل كل الناس وان يحب كما يحب الناس ، وتبلورت القضية فى شخص «جنان » التي لم تستطع ان تتفهم تطلعات الشاعر ولم تنقذه من ورطته ! ولاحقه ظل « جلبان » أمه اينما سار ، ولم ينحسر عنه وتسلطت

صحبة « والبة » على حياته وعلى شعره وكأنها معيار أدبي جيد حين اختلط السلوك الخاص بالابداع الفني الذاتي في افكار بعض الناس واحكامهم • وتشابكت هذه الامور واثـارت في نفس الشاعـر تطلعات مريرة وخيبات مستمرة ، وتلفت يبحث عن حل ، ولم يجد غير الكأس ، فلترتفع ، اذن ، تلك الكأس فى وجه الشمس ولتمتزج حبيباتها بلألائها ، وليكن الشاعر فارس ظلمات حانات بساتين الكرخ •

ولتصبح تلك الكأس ادانة لكل العصور وانعكاسا لمواجد انسان يرفض تعاسة مواكب السائرين الى قبورهم صحاة مبرأين من الذنوب ، فاستطاب الوهم وتعلق بالعزاء ومجد السكر واحبه تعويضا عن كل نساء العصر وعن كل تواريخ وامجاد وانساب البشر •

وهكذا حول النواسي الدنيا الى حانة والزمن الى ساق وارتضى الدهر نديما ، وكأنه غريق يعبر لجج الخمور تتجاذبه دنان طافية ، كطوق نجاة ، يمسك باحدها فيفلت منه ليتبع آخر وآخر حتى تنتهي الرحلة الى شاطىءالموت، فكان ظاهرة مميزة فى عالم الشعر والانسان •

ولم يكن الزمن عنده ماضيا او حاضرا او مستقبلا وانما كان زمنا مخموراً منفيا فى الكأس فقد ظله وابعاده الثلاثة فيها ، وطفت تلك الابعاد فقاعات ضاعت في الهواء بعد ان حبستها الدنان دهورا واحقابا •

ولم يهمه الزمن كثيراً ولم يكن لديه وقت ليفكر فيه(٢) :

ابلـــغ هــواك مــن الغنـــا   والكــأس واغن عــن الزمــن

* * *

ولكن ســبتني البابليــة انهــا   لمثلي فى طول الزمــان ســلوب

* * *

مالذة العيش الا شرب صــافية   فى بيت خمارة او ظــل بســتان
صفراء كرخية حمراء اذ مزجــت   كأنهــا وجــل يعلــوه لو ـان

واختلاط رؤى الانسان المخمور مسألة يقف ازاءها الزمن حائراً لايستطيع ان يفصل الذكرى عن الحلم والحقيقة عن الوهم[٣] :

تمتع من شباب ليس يبقى وصل بعرى الغبوق عرى الصبوح

* * *

اصدع نجي الهموم بالطرب وانعم على الدهر بابنة العنب
واستقبل العيش فى غضارته لاتقف منه اثار معتقب

وهكذا اراد ابو نواس ان ينتقم وان يثأر ... ولكن كوى صغيرة اطلت عليه فى حالات الصحو القليلة ، واوضاع السكر الخفيف ، فأرته الزمن والكأس متصاحبين[٤] :

فاشرب على جدة الزمان فقد أصبح وجه الزمان مقتبلا

* * *

ألف المدامة فالزمان قصير صاف عليه وما به تكدير
وله بدور الكأس كل عشية حالان ، موت تارة ، ونشور

وأطلت عليه الدنيا عروساً تزهو بجمالها[٥] :

ألا انما الدنيا عروس وأهلها اخو دعة فيها وآخر لاعب

ولكن ماجدوى تلك الدنيا وحياته بائسة شقية لا مزيد فيها للبلوى ، يعافها الموتى ، ولايرتضونها حياة ثانية [٦] :

ولو اني استزدتك فوق مابي من البلوى لاعوزك المزيد
ولو عرضت على الموتى حياتي بعيش مثل عيشي لم يريدوا

الا انه ينتبه للزمن فى حالات نادرة ويقف امامه مبهوتا ولا يعالجه الا بالخمور ، فهو يصف تصاريفه فى ثمانية وثمانين بيتاً ويلخص رأيه فيه بقوله[٧] :

وكم نقمة أبدى وكم غبطة طوى وكم سيد أهوى وكم عروة فصم

ويضنيه ذلك الزمن حين يشتت اصحابه ويبعد عنه ندمانه ويقسو على القاطنين فيعفي آثارهم [٨] :

عرم الزمان على الذين عهدتهم بك قاطنين وللزمان عرام

* * *

في فتية كـالسيوف هـــزهـم شـــرخ الشـاب وزانهم ادب
ثـم أراب الــزمان فـاقتسموا ايدي سـبا في البلاد فانشعبوا

ويصفو الزمان ويستكين اذا كان الندماء الى جانبه يداوون جراح رجل كان يحس الوحدة بشكل مأساوى لم تفد معه الا الخمر والغربـة في الخمر ، والتفرد عن العالمين وحشة ورفضا ، فما اروع هؤلاء الندمان الذين لم يجافهم الزمن في رفقته ، ومـا ألطفهم رفاقا لايطيق العيش بدونهم ، ولهم ولوحدته نظم قصائد المديح التيتحولت أعطياتها خمورا سائلة في الحوانيت والمواخير[٩] :

دارت على فتية دان الزمان لهم فـمـا يصيبهم الا بما شـاؤوا

وحين لايفيد النديم ولا تنفع الخمر وتنضب الاعطيات يستعين بامرأة او ممدوح[١٠] :

أسعديني على الزمان « عريب » انمـا يسـعد الغريب الغريبـا

ويرضى بالامين قوة تفوق الزمن صلابة وعتواً وغطرسة[١١] :

رضينـا بـالامين عن الزمـان فـأضحى الملـك معمور المعاني

فأيدي الامين تزيل تراكمات نزيف الزمان السـاري من الدنان الى فؤاد شاعر لايداوي الجرح الا بجرح[١٢] :

وكلت بالـدهر عيناً غير غافلة من جود كفك تأسو كلما جرحا
أنت الذي تأخذ الايدي بحجزته اذا الزمان علـى أولاده كلحا

ويستجير بذمة الخصيب على صروف الدهر[١٣] :

أنـا في ذمـة الخصيـب مقيـم حيث لا تعتدي صروف الزمان

ويطمئن الحبيبة ان بينه وبين تلك الصروف سدا منيعاً يمثله عبيد[١٤] :

لاتخـافي علـي صرف الليالي إن بينـي وبينهـن عبيـدا

وحين يفتقد الحبيب يستعين بالزمن ويحرق له البخور ويستعيد الماضي ويقدم فروض الطاعة والشكر للذكريات[١٥] :

سأشكر للذكرى صنيعتها عندي وتمثيلها لي من أحب على البعد
يقربه التذكـار حتى كـأنني أعانيـه في كل أحواله عنـدي

وتتسع تلك الكوى بتقادم العمر وتهمس اليه بهواجس مقلقة لاينفع معها ذهول الخمر[١٦] :

ان مـع اليوم فاعلمن غـدآ ... فـانظر بما ينقضي مجيء غـده
مـا ارتد طـرف امرىء بلذته ... الا وشيء يمـوت في جسـده

فيميل الى التأملات ويحاول الاستغفار ويلبس مسوح الزهاد ، بعد ان استكثر من الخطايا[١٧] :

تكثر ما استطعت مـن الخطايا ... فـانك قـاصـد ربـآ غفورا

ويعرف ان نعيم الدنيا نازح وزائل[١٨] :

ولا تغرنـك دنيـا ... نعيمهـا عنـك نـازح
وبعضها لـك زيـن ... وجبهـا لـك فاضح

فيجثو امام الرب يسترضيه[١٩] :

يـارب ان عظمت ذنوبي كثرة ... فلقـد علمت بأن عفوك اعظم
ان كـان لايرجوك الا محسن ... فبمن يلـوذ ويستجير المجـرم

ويدرك أن الدنيا هباء ، بعد أن صفع وجه عصره وهزىء بزمانه ولم يعترف بأبعاده واستعان بالنسيان على صروفه واستقطب الماضي والحاضر والمستقبل في كأسه[٢٠] :

أيا رب وجـه في التراب عتيق ... ويارب حسـن في التراب رفيق
ارى كل حي هالكآ وابن هالك ... وذا نسـب في الهالكين عريق
فقل لقريب الـدار انك نـازح ... الى منزل نائي المـحل سـحيق
اذا امتحن الـدنيا لبيب تكشفت ... له عـن عدو في ثياب صـديق

ويوطىء ابو نواس بهذه الابيات واخرى مماثلة ، تحمل تأملات حزينة مريرة لرجـل متعب مضيع ، لقصائد متكاملة يبتدعها شعراء آخرون تختلط معانيها بمعميات هذا الوجود وتحاول عبثآ أن تفسره فتنطوي على مواجد تنقلها الافكار السواحة من عالم الكأس العسجدية الى ظلمة القبر الموحش •

---

(١) ورد في طبقات الشعراء لابن المعتز ، تحقيق عبدالستار احمد فراج ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٢٠٢ : « ان ابا نواس كان يهرب من الخلفاء والملوك بجهـده ويلام على ذلك فيقول انما يصبر على مجالسة هؤلاء الفحول

المنقطعون الذين لا ينبعثون ولاينطقون الا بأمرهم ، والله لكأني على النار اذا دخلت عليهم ، حتى انصرف الى اخواني ومن اشاربه لاني اذا كنت عندهم فلا أملك من أمري شيئا » .

(٢) ـ (٥) ديوان ابي نواس ، تحقيق احمد عبدالمجيد الغزالي ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص٢٩٠ ، ١١٠ ، ٦٧٧ ، ٧١ ، ٦٦١ ، ٦٣ ، ٢١ ، ٦١٦ .

(٦) محمد مهدي البصير ، في الادب العباسي ، ط١ ، بغداد ١٩٤٩ ، ص ١٦٦ .

(٧) ـ (٢٠) الديـوان ، ص ٥٨٨ ، ٤٠٧ ، ٣ ، ٦ ، ٢٧٥ ، ٤١٦ ، ٤٥٧ ، ٤٧٧ ، ٥٠٢ ، ٢٣٤ ، ٦١٩ ، ٧٣٠ ، ٦١٤ ، ٦١٨ ، ٦٢١ .

الضوء والموت

حاول ابو تمام أن يكتب قصائد بمـداد حضارة عصره وأن يستعير بعض معانيه من اشعاعات عصور اخرى امدته بها مطالعاته واطلاعاته المتنوعة فى عوالم الانسان والخليقة والحياة ،وأراد أن ينطلق شعره متميزا في دنيا الفكر والتأمل والفلسفة ، ولكن معطيات دهره حالت دون ذلك وحددت من مضامينه واجوائه ، وطواه الموت ولم يتم الرحلة ، فكيف تعامل ابو تمام مع الوجود كشاعر ومفكر وانسان ؟ وكيف عبرت قصائده عن مواقفه ؟ وهل المديح عنـده تعبير عن خيبة أمل في الفكر وفى الحياة وفى الابداع ؟ ! وهل الاغراض البلاغية التي أكثر من استعمالها تعويض عن تلك الخيبة ؟ ! وانعكاس عن سخرية وهزء بسعميات زمن لايملك الشاعر من أمره شيئا ؟ !

استغرقت الاماديح ثلاثة أرباع شعره[1] ، فما عصارة الربع الاخير منه ؟ وما خلاصته ؟ وما الذي يتحفنا به ويخبرنا عنه ؟ وهل يحمل فى طياته أسفاً على جزء كبير من تراثه الشعري وموهبته وابداعه ضاع وتبدد فى خضم الكذب الموزون المقفى ؟ !

نجد لابي تمام ، مبثوثا فى ذاك الربع الاخير ، موقفا فكريا واضحا من قضايا الزمن والموت والحياة ، ولعله أسبق الشعراء الى أن ضوء الفجر الرائع الذي يولد فى نهاية ظلام كل دورة شمسية إيذان بموت جزء من حياة الانسان ، يمثل ناعياً دوريا رتيباً ، ويتكرر يوما بعد يوم ، وعلى مدى الدهور ، فالعمر قصير ، والانسان يكدح فى رحى الليل والنهار وهي تطحن أيامه وتسـوي اعوامه وتسقط حياته فى اللانهاية[2] :

أللعمر فى الـدنيا تجـد وتعمر	وانت غداً فيهـا تمـوت وتقبر
تلقـح آمالا وترجـو نتاجهـا	وعمرك مما قـد ترجيه أقصـر
وهذا صباح اليوم ينعاك ضوؤه	وليلته تنعاك ان كنـت تشعـر

فالايام تجزىء موت الانسان انتحاراً بطيئاً منتظماً بتعاقب الليل والنهار والظلام والضياء[٣] :

وما لاح نجم لا ولا ذر شـــارق على الخلق الا حبل عمرك يقصر
فهذي الليالي مؤذناتك بالبلـــى تـــروح وأيـــام بـــذاك تبكـــر

ويؤكد أن الدنيا خؤون لايأتمنها أحد ، إن أقبلت أدبرت وإن صفت كدرت وان اسعدت اشقت[٤] :

فلا تأمن الدنيـــا اذا هي اقبلت عليك فمـــا زالت تخون وتدبـــر
فما تم فيها الصفو يوماً لاهلـــه ولا الـــرفق الا ريثمـــا يتغير

والانسان مقترن بمصيره ، يحمله معه معاناة أبدية ، لا قرار لها ، تذكره بمآله ونهايته[٥] :

تذكر وفكر فى الذي انت صائر اليه غـــداً ان كنت ممن يفكـــر
فـــلا بد يـــوماً ان تصير لحفرة باثنائها تطوى الى يوم تنشـــر

ولكن هذا العرض المتشائم للحياة لايدفع الشاعر أن يقدم حلا أو يقترح موقفا او يدعو الى كشف معين او ينشد اللامبالاة فلسفة يومية ، ولايسهم فى دفع الانسان الى اداء دوره الطبيعي بشكل يليق بانسانيته ليفسح المجال للوريث الحتمي ، لانسان الغد الاتي ، ان يأخذ مكانه ، فتدور الحياة ويتبادل البشر المواقع ، فتذكير المرء بمصيره ، على هذا الشكل المأساوي المفرغ من اي محتوى ، تجاوز للحاضر يشوه نقاء الحياة فلا يحس الانســـان بهاءه ، ولايستطيع معه ان يمثل دوره وقدراته ، فلو ولد جيل ، وبقي خالدا ، ولم تعقبه اجيال ، لعاش البشر مرحلة واحدة متخلفة جامدة غير متطورة يكون السأم والقرف والتطلع الى الموت خاتمة لها .

وينشد الشاعر البقاء ويحاول الخلود ويتقرب من الدنيا ويكرر المعنى الحسابي الغريب فى انقضاء أجزاء من حياته يوما بعد يوم ، ويجزع ان تمحى آثاره وتخلق جدته[٦] :

وحالت بي الحالات عما عهدتها بكـــر الليالي والليالي كمـــا هيا
اصوت بالـــدنيا وليست تجيبني احاول ان ابقى وكيف بقائيـــا

وما تبرح الأيام تحذف مدتـــي بعدّ حساب لا كَعـدّ حســـابيا
لتمحو آثاري وتخلـق جدتـــي وتخلي من ربعي بـكره مكانيا
كما فعلت قبلي بطسم وجـرهم وآل ثمود بعـد عاد بـن عاديا

ولا يرى الشاعر جدوى في الاماني التي تتحقق والصبوات التي تتم والافراح التي تصدح في قلب الانسان والغايات والاهداف التي يعمل من اجلها فتعمر حياته ووجدانه ، مادامت الليالي ستغصب منه مهجته وتحيلها هباء وعدما كما فعلت بأصحاب القرون الخوالي[٧] :

اقول لنفسي حين مالت بصغوها الى خطرات قـد تتجـن امانيا
هبيني من الدنيا ظفرت بكل ما تمنيـت او اعطيـت فوق امانيا
اليس الليالي غاصباتـي بمهجتي كما غصبت قبلي القرون الخواليا
فياليتني من بعد موتي ومبعثي اكون رفـاتـا لاعلـي ولا ليـا

فخلى نفسه وشأنها ولم يحفل بالدنيا واحداثها والنائبات وصروفها ، فالليالي توقد نارها بحياة الانسان وتتوهج مادام حيا حتى تخبو جذوتها بموته ، دخانها الشيب،وهذا العمر المتناقص وتلك الخود التي بكى زمانها[٨] :

الم ترني خليت نفســي وشانها ولم احفل الدنيا ولا حدثانهـا
لقد خوفتني النائبات صـروفها ولو امنتنـي ما قبلـت امانها
وكيف على نار الليالي معرسي اذا كان شيب العارضين دخانها
اصبت بخود سوف اغبر بعدها حليف اسى ابكـي زمانا زمانها

فليس عجيباً ــ اذن ــ ان يرى عجائـب الايام قـد استحالت امراً طبيعيا مألوفا[٩] :

على أنها الأيام قـد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائـب

فيدعو الى انقراض الجنس البشري ، فلو خبر الناس معرفة الشاعر بالزمان لما ربوا ولما ولدوا ولكنه لاينهي الينا مايعلم ، ولايطلع بفكرة او حل او بديل او نظرية او فلسفة[١٠] :

لو يعلم الناس علمي بالزمان وما عاثت يداه لما ربوا ولا ولـدوا

ويكرر الشاعر معاني زمنية معروفة[11] :

هيهات لايأتـي الزمان بمثلـه   ان الـزمـان بمثلـه لبخيـل

ويستحيل اليوم عنده ساعة فى وداع[12] :

فلم ار يوما كان أشـبه سـاعة   بيومي من اليوم الذي فيه ودعا

ويشكو الموت فىسره واعلانهوليس لهمن موقف ازاءه غير الشكوى[13]:

سنشكوه اعلانـا وسـرا ونية   شكية من لايستطيـع يقاتلـه

ويرى ان حق هذه الدنيا باطل فالموت والحياة بذرتان توأمان لاتنفصلان فلا حياة بلا موت ولا موت بلا حياة[14] :

ما إن تـرى شيئاً لشيء محيياً   حتـى تـلاقيـه لآخر قاتـلا

من ذاك اجهـد ان اراه فلا ارى   حقا سوى الدنيا يسمى باطـلا

والدهر ظامىء ابدا الى الموت والقتل مادامت حياة وما عاش انسان[15] :

جرعك الدهر كأس الصبر فى لجج   للموت يغرق فى آذيها الجبـل

موتا وقتلا كأن الدهر يظمأ ما   عاشوا وينقع ما ماتوا وما قتلوا

وكالشعراء الاخرين يتوهم ان احد ممدوحيه يعينه على عثرات الزمان ، ولكن الدهر يطويه بين ضحاياه ايضا فلا يمهله الموت[16] :

عثر الزمان ونائبـات صروفـه   بمقيلنا عـثرات كـل زمـان

لم يترك الحدثان يوم سطا بـه   أحداً نصول به على الحـدثان

ويرى الشاعر ان الموت يموت والدهر يفنى[17] :

اذا كان ريب الدهر اثكلنيهـم   فالدهر ايضـاً ميـت مثكول

ولم تتكامل آراء ابي تمام في الموت والخليقة والزمن والدهر بقصائد قائمة بذاتها او إطار محدد واضح في تراثه او افكار متميزة بفلسفة خاصة ، فقد مات ولم يتم الرحلة ، وملأ المديح ديوانه وأخذ عليه ، مع معطيات عصره ،

سبل انطلاقه الى عوالم ارحب ، وكان له في الاغراض البلاغية غير المعهودة شيء من العزاء .

---

(١) ينظر ديوان ابي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، القاهرة ١٩٦٥ . وورد في اخبار ابي تمام للصولي ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٠٤ : «حدثني احمد بن يزيد المهلبي قال : سألت ابي عن ابي تمام فقال : سمعني ابي وانا الاحي انسانا في ابي تمام فقال لي : ماكان احد من الشعراء يقدر ان يأخذ درهما واحدا في ايام ابي تمام ، فلما مات اقتسم الشعراء ماكان ياخذه » .

(٢) ـ (٧) ديوان ابي تمام ، المجلد الرابع ، ص ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ .

(٨) عناد غزوان اسماعيل ، المرثاة الغزلية في الشعر العربي ، بغداد ١٩٧٤، ص ٤٢ ، وانظر مصدره .

(٩) ـ (١٦) ديوان ابي تمام ، المجلد الرابع ، ص ٤٢ ، ٧٧ . ١٠٢ ، ٩٩ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١٢٦ ، ١٤٤ .

(١٧) المصدر السابق ، ص ١٠٥ ، وورد في شرح البيت : « الموت اذا حصل واهل الجنة في الجنة واهل النار في النار ، يجاء به في صورة كبش أملح فيذبح بين النار والجنة فيجزع لذلك اهل النار جزعا شديدا لان الموت لهم راحة » .

خواطر ابي الطيب

عاش المتنبي صراعا ، وظل طيلة حياته يعبر عنه ويحاول أن يفهم بواعثه وأن يحقق فيه الحلم بالوهم ويحول الضعف الى قوة ، والانخذال الى تجاوز، والعبودية الى سيادة ، والانسانية الى ألوهية ، وعالج ذلك الصراع بتأزم نفسي عاطفي وفكـر يفتقر الى أسس ثابتة او تقنين نظـري او وضوح فى الرؤيا ، فانعكس خيبة وشكوى ، وتمردا ورفضا ، غير قائمين على ايجاد البديل .

وكان الزمن قطب ذلك الصراع عنده فدارت فى مخيلته خواطر تمثله عدوا لايقاوم ، يحمل فى طياته المصائب والكوارث ، ويقلص الاعمار يوما بعد يوم ويحيل السعادة ، فيما يضيع من الوجود المحدود على الارض ،وهماً يتضمنه شقاء دائم ، وأحزان لاتنتهي ، والح المتنبي في تقليب امور الحياة وصروف الدهر بلمعات مكثفة مختصرة وشذرات قليلة متفرقة فى شعره بالرغم من شغفه بالخطرات الفلسفية والتأملات الفكرية والحكم التي تلخص تجارب كاملة مستمدة من احداث معينة [١] .

ولولا المديح ، وسلبية سيطرت عليه ، وموقف معاد للناس غير مبرر من شاعر كبير ، وافصاح عن تطلعات وآمال متميزة وخيبة مريرة فى تحقيقها واقعا يضيف الى كونه شاعراً صفة صانع للتاريخ ، لأمد القارىء كما ملأ الدنيا وشغل الناس ، بزمنية رائعة ولقدم لنا قصائد متكاملة فى حيرة الفكر الانساني ازاء الغاز هذا العالم ، ومنها الزمن العاتي واهله الذين لم يجد عندهم شرفاً وعقلا ومروءة[٢] :

اذم الـى هـذا الزمان أهيلـه ... فأعلمهم فـدم واحزمهم وغـد
وأكرمهم كلـب وابصرهم عـم ... وأسهدهم فهد واشجعهـم قرد

ونحار في هذه الاوصاف : ألم يكن هناك بين البشر من يحظى باعجاب الشاعر او ينال رضاه[٣] :

ضاق ذرعا بان أضيق به ذر عاً زماني واستكرمتني الكرام
واقفا تحت إخمصي قدر نفسي واقفا تحت اخمصيّ الأنام

وهنا تكمن عقدة الألوهية ، اساس ذلك الصراع ، ويظهر تطلع الشاعر الى ان يكون سيد نفسه وواحد عصره وخالق مصيره ومسير امور هذا العالم ، وحين لايستطيع تحقيق ذلك تتخذ المسألة شكلا من التعالي لايتلاءم وتواضع العلماء والمفكرين والشعراء الكبار[٤] :

ودهر ناسه ناس صغار وان كانت لهم جثث ضخام
وما انا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

فلماذا يهتم شاعر كبير بأناس صغار يقلقونه ؟ وهو الذي أشار الى أن الرجل الحقيقي تصغر عنده عظائم الامور ولايمكن ان يلتفت الى التافه من الناس والاشياء[٥] :

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

وما كان اجدره ان يتناسى وجودهم ، فهم لايبلغونه شخصا ومنزلة وموهبة وتفكيراً[٦] .

وهكذا يرد الدهر واهله وما اليهما في قصائده افصاحا عن ذلك الصراع وخيبة أمل من لايستطيع الفوز في حاجاته ودهشة الانسان الذي لايجد لصروف هذه الحياة تفسيرا مقنعا فيجرد من الزمن عدوا مرعبا يطارده في كل مكان بنكباته ولا يطيق منه فكاكا ومن احداثه هروبا ، الا حين يلجأ الى ممدوح ، فهناك قوتان هائلتان يمثل الزمن اولاهما ولايمكن ان تقاومها الا القوة الثانية التي يمتلكها الممدوح ، ولا نود ان نبرر هذه المبالغة بان الشاعر لايرى في الزمن الا الفقر والخذلان والاندحار ... الخ ، وان الممدوح يزيلها جميعا برعاية او أعطية ، فيأتي الزمان الى الشاعر ذليلا مستغفرا[٧] :

حالا متى علم ابن منصور بها جاء الزمان الي منها تائبا

أو يلوذ بظل ممدوح آخر فيندحر الزمن[٨] :

يامـن نلوذ مـن الزمان بظلـه ... حقـاً ونطرد باسـمه ابليسـا

ومن للنوائب غير سيف الدولة ، وإن لم تكن مكافئة ومماثلة لقوته وجبروته[٩] :

اني دعوتـك للنوائـب دعوة ... لـم يـدع سامعها الى اكفـائه
فأتيـت مـن فوق الزمان وتحته ... متصلصـلا وأمـامـه وورائـه

ولاعجب فالممدوح قتل الزمان علما وتمحيصا فلا يستطيع ان يمارس لعبة المصائب والاحزان معه[١٠] :

وقتلـت الزمان علما فمـا يغـ ... ـرب قـولا ولا يجدد فعـلا

والزمن يصح بصحة سيف الدولة ويعتل بعلته[١١] :

واذا صـح فالزمـان صحيـح ... واذا اعتـل فالـزمـان عليـل

وهذه الازمان تابعة له تسعد من يحظى برضاه ، وتسير بهديه فهي امامه كخيل جامحة استطاع ترويضها فانطوت فى ركابه طوع يديـه يوجهها حيث يريد[١٢] :

فتى يتبع الازمان فى الناس خطوه ... لكـل زمـان في يـديه زمـام

وحين يفتقد الشاعر الممدوح وقوته المضادة، يجسد من الزمن عدوا هائلا يحمل كل معاني الدمار والهلاك فيتهدده ويتوعده بلا طائل[١٣] :

ولو برز الزمان الـيّ شخصـا ... لخضب شعـر مفرقـه حسامي

فالزمن هو القاتل الحقيقي الذي لايحاكم ولا يثأر منه[١٤] :

اذا مـا تأملت الزمان وصرفـه ... تيقنـت ان الموت ضرب من القتل

وسلاحه الصبر مع اعداء منهم الدهر[١٥] :

اطاعن خيلا من فوارسهـا الدهر ... وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبر

ويطول الصراع فيخبره الزمن ويعجم عوده ويدرك قوته ولكن الشاعر لايستطيع النصر فى تحديه له فأحسن حالاته وبال وفناء[١٦] :

فما ترجي النفوس من زمن أحمد حاليه غير محمود
إن نيوب الزمان تعرفني انا الذي طال عجمها عودي
وفيّ ما قارع الخطوب وما آنسني فى المصائب السود

فليقابله ــ اذن ــ بالهجاء ، اقوى مايملك شاعر ، وليكن التحدي رائده فى موقفه وحيرته ازاء جبروته[١٧] :

قبحا لوجهك يازمان فانه وجه له من كل لؤم برقع

ولتسد همم الشاعر على الدهر كل طرقه واحابيله[١٨] :

وما اظن بنات الدهر تتركني حتى تسد عليها طرقها هممي

والشاعر لايتقبل اي منحةمن الزمان دون ان يكون اختياره عنصرا واضحا في عملية الاخذ والعطاء ، فهو يرفض ان يقوم بدور المتلقي ابدا ويتأبى سيادة الزمن عليه[١٩] :

أعطى الزمان فما قبلت عطاءه وأراد لي فأردت ان أتخيرا

ولا تلبث نقمته على الزمن ، المنتصر دوما ، بلا ممدوح ، أن تدفعه الى وصفه بالشيخوخة والهرم فيتصور انه ولد فى نهاية هذا العالموان مصائبالزمن كلها نابعة من تقادم العهد ويغبط الناس الذين عاشوا شباب الزمنوفتوته[٢٠] :

اتى الزمان بنوه فى شبيبته فسرهم واتيناه على هرم

ولو تتبعنا تاريخ حياة الشاعر لرأيناه أكثر من غيره حظاً وسعادة وموهبة ومنزلة رفيعة بين الناس ، فقد هيأ له شعره ، والمديح خاصة ، مكانة تخشى منها الملوك وينحسر ازاءها جبروت الطغاة وتقف امامها الكبرياء المزيفة متملقة تنشد خلوداً فى عالم لم يجد غير الشعر وسيلة للوصول اليه[٢١] . إنه لم يذم الزمن لنكبة معينة حلت به ، او لمجافاة سيف الدولة له ، بعد تسع سنوات من المدائح ، او لخيبة أمل في الحصول على ما ابتغاه من كافور ، او لموقف الحساد والوشاة منه ، او لانه ماستطاع الافصاح عن نسبه وتكتمه طيلة حياته[٢٢] . شكاواه متفرقة فى شعره منذ شبابه حتى

مقتله ، تعبيراً عن صراع الانسان مع قدره ، كان يريد شيئاً يدرك كنهه ، تمثل وهما فى مال او ولاية ، واملى عليه تفرده نوع من الأنانية والنرجسية وصل حد الوجع والمرض ، وأراد ان يحقق فى نفسه تصعيد الانسان الى الاله ، فالضعف البشري أقلقه ولجوءه الى المديح أشعره بالمهانة . وكانت حصيلة كل ذلك نقمة متزايدة واماني غيرمحققة وكراهية للناس متصاعدة . ودار فى نفسه هاجس لم لا اكون ، وانا احسن الشعراء ، خالقا مصيري ومتحكما في شؤون حياتي ؟ الا ان الزمن كان له بالمرصاد حال دون الشعر وضوحه ولم تنعكس المعاناة موقفا فلسفيا او فكريا معينا ، ولكنها اتخذت شكل احاسيس متنافرة نفذت فى احايين قليلة الى قصائده وكأنه يبغي لها كتمانا ونسيانا[٢٣] .

ماذا كان يريد اذن ؟

يقولون لي ما انت فى كل بلدة   وما تبتغي ، ماابتغي جل ان يسمى

*   *   *

أريــد من زمني ذا ان يبلغني   ماليس يبلغه من نفسه الـزمن

فهو فى عالم الشعر وصل الى المنزلة التي لم يصل اليها الآخرون[٢٤] :

مانال اهــل الجــاهلية كلهــم   شعري ولا سمعت بسحري بابل

وبالرغم من ذلك فقد طالت رحلته فى بداية الامر طلبا لرزق كان الشعر كـل بضاعته[٢٥] :

ضــاق صــدري وطــال فــي طلب الرزق قيامي وقــل عنه قعودي

أبــدا اقــطــع البلاد ونجمي   في نحوسٍ وهمتي في ســعود

ولكنه ملأ الدنيا وشغل الناس وكان شاعر عصره وخلده الزمان الذي هجاه كمــا لم يفعل مع شــاعر آخر ، ألم يكفه ذاك ، ولماذا لم يقنع بما دون النجوم[٢٦] :

اذا غامــرت فى شرف مــروم   فــلا تقنــع بما دون النجــوم

والدهر الذي أصبح راوية لشعره ، ألم يكن جديرا بالود أو المحاباة[٢٧] :

وما الدهر الا من رواة قصائدي ... اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

ونعجب لماذا لم يستمد من نهجه الشخصي وموقفه الفكري مايبعده عن تلك الشكاوى والنقمة والمعاناة ؟ !

الا ان المسألة لم تتخذ ذاك النهج دوما ، فلها وجه آخر ، أكثر اشراقا واعمق فكرا واقرب الى التأملات ، لم يبرز بوضوح تام لظروف الشاعر وأسفه الدائم على نفسه ومرارة صاحبت خيباته الحقيقية والمتصورة ، وأماديح أضاعت من وقته وموهبته ما كنا نتمنى معه أن يكثر من اشعاره الفكرية ، فخسر نجازات ، كانت فيما بعد من نصيب ابي العلاء المعري وعمر الخيام وشعراء خرين ، وان كان للمتنبي شرف المحاولة والسبق فهو الذي وطأ لهذا وذاك من الشعراء أن يطوروا القصيدة الفكرية وان يوجهوها الى صلب هذه الحياة والغازها ومبتداها ومنتهاها وغاياتها بعيدا عن الاغراض التقليدية التي ستهلكتها المعاني المكررة[٢٨] :

ومن لم يعشق الدنيا قديما ... ولكن لا سبيل الى الوصال

الموت نهاية الأحياء ، وذرات الرمل المتساقطة من الساعة القديمة واحدة بعد اخرى تومىء الى النهاية الفاجعة الآتية ، ولابد أن ندع الموتى يدفنون موتاهم ... شكسبير مستوحيا الانجيل ، وقامت الصيحة لاقوال مماثلة ، ونظر ... في عروة آنية خزفية فتصورها عيون فتاة ساحرة الاحورار غيبها الموت ... الى أصلها طينا ، وأراد المعري ان يخفف الوطء على هذه الارض ... . الا ان المتنبي لم يكن بعيدا عن هذه المعاني ، وربما كان من ... اليها[٢٩] :

... بعضنا بعضا وتمشي ... أواخرنا على هام الأوالي

... عين مقبلة النواحي ... كحيل بالجنادل والرمال

... البيتان يشكلان جزءاً من فلسفة الخيام الشعرية ولكنهما مختصران ... في رثاء[٣٠] ولم يتطورا ولم يقدما اطاراً كاملا للموضوع وجوا ... القارىء بوضوح ، وهكذا تأتي افكار المتنبي ونوازعه الذهنية

الرائعة في أبيات مفردة ضاعت فى خضم قصائد المرارة والشكوى والرثاء والمديح[٣١] :

ورأيت كلا ما يعلل نفسه بتعلة والى الفناء يسير

* * *

دع النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر

* * *

أبداً تسترد ما تهب الدنيا فيا ليت جودها كان بخلا
وهي معشوقة على الغدر لاتحفظ عهداً ولاتتمم وصلا

* * *

تبخل ايدينا بأرواحنا على زمان هي من كسبه
فهذه الارواح من جوه وهذه الاجساد من تربه
لو فكر العاشق فى منتهى حسن الذي يسبيه لم يسبه
لم ير قرن الشمس فى شرقه فشكت الأنفس فى غربه

* * *

وما ماضي الشباب بمسترد ولا يوم يمر بمستعاد

* * *

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه وان سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه ولكن تكدر الاحسانا

هذه أبيات تحمل خلاصة تأمل عميق طويل في حياة الانسان ، وتتيجة لعقلية كانت تود ان تسابق الازمان وان تترك أثراً على هذه الارض ،لاتؤثر العافية ، ولا تفلسف الكسل اليومي ، وتجد فى الصراع والمعاناة الفكرية شيئا من التفوق والتميز ، ولكن الانسجام لم يتحقق في الموقف والفكر والعمل والحياة ، وبدا المتنبي احيانا حريصا على هذه الدنيا ، وازهد الناس بها وأكثرهم احتقارا لها في احايين اخرى ، مداحا هجاءا ، لايقنع بما دون النجوم وبريد ضيعة من كافور ، ولعل هذا التناقض حصيلة شاعرية تتأبى المنطقية فى السلوك ،

والعلمية فى التفكير، والرتابة فى ردود الافعال، وبالرغم من ذلك كان ابو الطيب احد الشعراء المفكرين القلائل فى رحلة الشعر العربي المتعاقبة عبر العصور •

---

(١) ينظر للمؤلف : «حكم المتنبي ووحدة الموضوع في القصيدة العربية » ، مجلة الجامعة المستنصرية ، العدد ٢ ، بغداد ١٩٧١ .

(٢) ــ (٥) ديوان ابي الطيب المتنبي بشرح ابي البقاء العكبري ، تحقيق مصطفى السقا وجماعته ، ط٢ ، القاهرة ١٩٥٦ ، ١ــ٣٧٤ ، ٤ــ٩٤ ، ٧٠ ، ٣ــ٣٧٩ .

(٦) يقول بلاشير في محاضرة ألقاها في الجامعة السورية عام ٥٤ــ٥٥ عن المتنبي : « ان معرفته بالبشر عميقة لطول احتكاكه بهم » ، تنظر مجلة الاداب ، العدد ٢ ، بيروت ١٩٥٤ ، ص ٧١ ، ولا اظن ان كثيرا من اشعار المتنبي يؤيد ما ذهب اليه المحاضر .

(٧) ــ (٢٠) الديوان ، ١ــ١٢٥ ، ٢ــ٢٠٠ ، ١ــ٧ ، ٣ــ١٢٤ ، ٣ــ١٥٦ ، ٣٩٣، ٤ــ٤٥ ، ٣ــ٥١ ، ٢ــ١٤٨ ، ١ــ٢٦٣ ، ٢ــ٢٧٥ ، ٤ــ٣٩ ، ٢ــ١٦٣ ، ٤ــ١٦٣ .

(٢١) ينظر للمؤلف : التكسب بالشعر ، دار الاداب ، بيروت ١٩٧٠ .

(٢٢) ينظر لعبد الغني الملاح : المتنبي ، يسترد أباه ، بغداد ١٩٧٤ .

(٢٣) ــ (٢٩) الديوان ، ٤ــ١٠٧ ، ٢٣٤ ، ٣ــ٢٥٩ ، ١ــ٣٩٠ ، ٤ــ١١٩ ، ١ ــ ٢٩٠ ، ٣ ــ ٨ ، ١٨ ، ١٩ .

(٣٠) هذا البيتان وردا في قصيدة يرثى بها والدة سيف الدولة ، ويبدو انه لم يحزن لوفاتها وانه اضطر الى رثائها ارضاء لابنها واتماما للطقوس الشعرية في بلاط سيف الدولة ، فالابيات التي تتحدث عن المناسبة ذاتها مباشرة ضعيفة يهرب منها الشاعر الى احكام عامة تتناول الموت والحياة والخلود ، وتتضح لنا المسألة اذا قارنا بين هذه القصيدة وبين مرثيته لجدته ومرثيته لاخت سيف الدولة ... الخ ، واظن أن هذه القصيدة ، بأبياتها العامة البعيدة عن المناسبة ، من خير شعره لانها انطلقت الى رثاء الانسان ، ولم تتحدد باطار الموضوع العابر ، ولو اضطر الى نظم قصائد مماثلة في الرثاء دون احساس وشعور صادقين لامدنا بأبيات تأملية فكرية جيدة كثيرة .

(٣١) الديوان ، ٢ــ١٣٨ ، ١٤٨ ، ٣ــ١٣٠ ، ١ــ٢١٢ ، ٣٥٦ .

جناية وخلود

ويضع العصر العباسي ، وريث العصور الثلاثة ، ثقل أفكاره وتجربة أبنائه وأخيلة شعرائه في ابي العلاء ، فيختلط المنطق بالابداع والبراعة اللغوية بالخيال والقصة بالفلسفة والشعر بالنثر في شموخ وتميز وتحد ، ويبهر الباحثين بالعمق ويرفد الدارسين بالكشف ويقدم خلاصة مكثفة لما توصل اليه انسان القرون الهجرية الاربعة .

وتنحسر عن الآباء جنايتهم في شخص ابي العلاء ، وان لخصت شاهدة قبره « هذا جناه ابي » مأساة حياة ومصير ، ولكن رفات ذلك القبر يومىء الى انسان استطاع ان يمثل زمنية كادت تصل ، باتتاجه ، الى العمل الادبي المتكامل[1] بالرغم من ظروف قاسية ومحبسين أطبقا عليه فما تمكن منهما خلاصا الا بفكر احتوى التجربة البشرية وطاف في الارض يبحث عن القبور المندرسة ، وصعد الى السماء يصف الجنة والنار ، وكانت للحياة وللشعر وللغفران عنده رسالة .

ضم تراث ابي العلاء آراء كثيرة في الموت والحياة والدهر والزمن بشذرات تتحد احيانا في مقطوعات شعرية لو تطورت ونمت وازدهرت لتحولت الى اعمال ادبية متناسقة غير مبعثرة ، فليس من دأب القارىء ان يجمع الخطوط والالوان لتشكل في ذهنه لوحة ابدعتها ريشة ضربت هنا وهناك وفي اماكن مختلفة وبموضوعات متنوعة ، وقد يشتت ذلك القارىء العمل المتماسك ذاته بتجزئة في فهمه واستيعابه[2] .

يجد ابو العلاء ، كزميله الطائي ، في تعاقب الليل والنهار ايذانا بانقضاء جزء من حياة الانسان فلا يأبه لضياء او ظلام ويدعو الى الحزن والبكاء[3]:

يحق لمن يهوى الحياة بكاؤه   اذا لاح قرن الشمس اوحين تغرب

ويعجب كيف يقضي ساعة هناء وسعادة ، والموت من ورائه يرصد حياته ، فالدنيا مأتم دائم ومناحة مستمرة[٤] :

وكيـــف اقضـــي ســـاعة بمسرة وأعلم ان الموت مـــن غرمائـــي

وهو يرى ان ساعة تمضي من حياة شخص ما تمثل عدوا يريد ان يهلكه برتابة وبطء وانتظام[٥] :

وما قارنت شخصا من الخلق ساعة من الدهر الا وهي أفتك من قرن

وان الايام المتعاقبة تأكل البشر فكأن الساعات فيها اسود[٦] :

وتـــأكلنـــا أيـــامنـــا فكـــأنمـــا تمر بنا الســـاعات وهـــي اسود
تســـير بنـــا الأيام وهي حثيثة ونحـــن قيام فـــوقهـــا وقعـــود

وهو يقترح ان تحل التهنئة مكان التعزية فالموت مناسبة مريحة علينا ان نفرح لها وان نبارك أصحاب الميت الذين اصابوا تراثا بحلولها[٧] :

قضى اللـــه أن الآدمي معـــذب الى ان يقـــول العالمون بـــه قضى
فهنيء ولاة الميـــت يوم رحيلـــه أصابوا تراثاً واستراح الذي مضى

ورثى شخصا فبارك له مسكنه الجديد : القبر ، وقال[٨] :

طلبت يقيناً من جهينـــة عنهـــم ولن تخبريني ياجهين سوى ظـــن
فان تعهـــديني لا أزال مســـائلا فأني لم اعط الصحيـــح فأستغـــن

ويرى ان الرجل السعيد هو الذي يموت سريعا ، ولايقيم في هذه الدنيا طويلا ، وبهذا يخرج رابحا ، لاسقام ولا تبريح[٩] :

ومـــن اليمن للفتى ان يجـــيء المـــوت اليـــه سعيـــاً ســـريحـــا
لم يمارس من السقام طويـــلاً ومضـــى لم يكابـــد التبريحـــا

وليس لزمان وفاء ، فالغدر طبيعة له امتدت الى أهله ، ويخطط الانسان لحياته ويشقى ويؤمل ويقدر وتضحك منه أقداره ، ويقف والفلك دائـــر

مستمر ، وضحك البشر سفاهة ، والبكاء اجدر بهم وبمصيرهم الذي لايعاد له سبك[10] :

أتروم من زمن وفاءً مرضياً ان الزمان كأهله غدار
تقفون والفلك المسخر دائر وتقدرون وتضحك الاقدار

* * *

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البرية ان يبكوا
يحطمنا ريب الزمان كأننا زجاج ولكن لايعاد له سبك

ويدفعه تشاؤمه ان يدعو الى العدم ، مادام الخلود متعذرا ، وينشد الدعة والهدوء والكسل والاتكال والموت فى الحياة فيشل قدرات الانسان ان يعمل المستقبل وللاجيال القادمة وان يصبح جديرا بانسانية لاتعترف بالفناء فهي اقوى من الموت[11] :

وكيف اشيد في يومي بناءً وأعلم ان في غدي ارتحالي
اقمنا في الرحال ونحن سفر كأنا قاعدون على الرحال

وتراكمت الازمنة والدهور « وزمان على زمان تقادم »[12] ، وأوغل الوقت في اللانهاية وتضاءلت ازاءه الاعمار[13] :

قدم الزمان وعمره ان قسته فلديه اعمار النسور قصار

وبلغ الدهر مكانا قصياً فى هذا الكون وشابت نواصيه بنجوم تتلألأ في ظلمات ليالي العصور[14] :

تقادم عمر الدهر حتى كأنما نجوم الليالي شيب هذى الغياهب

ولكن الزمن لايهرم ، ذاك خيال يساور انساناً امتد به العمر فذم تقادم العصور[15] :

بلغ الفتى هرماً فظن زمانه هرماً وذم تقادم الأعصار

وللزمن عنده صفات منها البخل والكرم[16] :

فلو سمح الزمان بها لضنت ولو سمحت لضن بها الزمان

والأزمنة أنواع ، رائعة تستحق الاطراء والمديح ، واخرى لها النبذ والازدراء ، وقد يتداخل الامر فيشغل بذم زمن حاضر عن مديح زمن انتهى وانقضى[١٧] :

كم أردنا ذاك الزمـان بمـدح فشغلنـا بـذم هـذا الزمـان

وبعد طول تأمل وتفكير لايرى في الزمان سبيلا الى طيب حياة ، فهو باق والانسان زائل ، ولايمكن ادراك المؤمل فيه[١٨] :

تأملنـا الزمان فمـا وجـدنـا الى طيـب الحياة بـه سـبيلا

* * *

نـزول كمـا زال أجـدادنـا ويبقـى الزمـان علـى ماجرى
نهـار يضـيء وليـل يجـيء ونجـم يغـور ونجـم يـرى

* * *

مـن ذا الـذي سمـح الزمـان لـه بـادراك المـؤمـل

وما الدهر الا الأمس واليوم والغد ، ولكنه يلغي تلك الابعاد الزمنية الثلاثة ، فالليالي أخوات والايام متشابهة تسير بوتيرة واحدة وليس لمؤمـل أن يرى في المستقبل حياة مشرقة تزيل مآسي الماضي والحاضر بطياتها[١٩] :

ثلاثة أيـام هـي الدهر كلـه وما هن غير الامس واليوم والغد

* * *

ألا انما الايـام ابنـاء واحـد وهذي الليالي كلهـا اخـوات
فـلا تطلبن من عند يوم وليلة خلاف الـذي مرت به السنوات

والحياة نار أولها دخان وآخرها رماد[٢٠] :

وكالنـار الحيـاة فمـن رمـاد أواخـرهـا وأولهـا دخـان

ويود للايام الماضية ان تعود[٢١] :

لـلـه أيـامنا المـواضي لـو ان شيئاً مضى يعـود
أبلى ودادي لـكم زمـان الـين احـداثـه حـديـد
لم يبل مـن بذلة ولـكـن يبلـى علـى طيـه الجـديـد

الا ان البشرية كلها بقدراتها واكتشافات ابنائها الدائبة لو شاءت ان ترد الامس المفقود لعجزت[٢٢] :

أمس الـذي مـر على قربـه يعجز أهـل الارضـ عـن رده

فمن الجهل ان نريد لما مضى رجوعا[٢٣] :

ولكـن الشباب اذا تـولـى فجهل ان تـروم لـه ارتـدادا

والناس والزمان فى اضطراب دائم لايقر لهم قرار[٢٤] :

عصـر شـتاء وعصـر قيـظ وعيـد فطـر وعيـد نحر
ويـوم نعمى ويـوم بـؤس ونحـن فـي خـدعـة وسـحر
كـأننا والـزمـان يجـري ركب سفين بلج بحـر

فمن يفهم الزمن ويستوعبه يهون عليه الشقاء والانحسـار ، ومعرفـة الشاعر بالناس تزهده بهم فهو يدرك ان العالمين هباء فيصغر من شأن الزمان وأهله ولا يرضى بهذه الدنيا سكناً ولا يهمه من تغول الغوائل ومن يقـع ضحية بين فكي الدهور[٢٥] :

واذا الفتى لحظ الزمـان بعينه هـان الشقاء عـليه والاعسـار

* * *

وزهدني فى الخلـق معرفتي بهم وعلمـي بـأن العالمـين هبـاء

* * *

كأنك أصغرت الـزمان واهلـه عبيـدا ولم ترض البسيطة دارا

* * *

وطال اعترافـي بالزمان وصرفـه فلست أبالي من تغول الغوائـل

وكادت افكار ابي العلاء في الزمن والدهر والحياة والموت تتجمع فى ظلال من المعاني مكثفة تقترب من العمل الأدبي المتكامل ، ولم تتسرب طاقته الفكرية فى حكمة عابرة او عظة غير ذات جدوى تحتمها مناسـبة او رثـاء بارد لاينفع معه غير الحديث عن الفناء والخلود ، كما فعل شعراء كثيرون ، بل اتخذت لها اشكالا واضحة فى أبيات وتضمنتها مقطوعات او قصائد لم

يسعفها الزمن نفسه ينمو وتطوير فى أجواء متميزة قائمة بذاتها ، أفصحت عن موقف الشاعر الثابت ازاء الكون والحياة فأفكاره لم تكن طارئة عليه او وسيلة للتفلسف ولكنها صبغت حياته كلها باطار متماسك ، وعاش غريبا فى موطنه(٢٦) وآمن بغربته وحملها معه الى قبره حسرات من لايملك من أمره شيئا ، ويحار في معميات هذا الوجود وتظل حيرته تحوم فـوق الرؤوس الخاوية وفوق القبور القائمة والمندرسة •

يخاطب ابو العلاء الدهر الذي تتوالى مصائبه ولا تتحقق آماله ، ويفني كل جديد ويميت كل قرين وينزل العقبان من اجوائها ، ويجمـع الشـيء ونقيضه فى سيل مده المتدفق الذي لايقف عند حدود ، فتجربة هذه الحياة تدعو الى الانحسار والزهد ، وكثرة رزايا الزمان تحمل الشاعر ان يفرح بقيوده وما أشبه الناس فى يد الدهر بالنقود ينفق منها مايشاء كما يحب ، فلو عرف الانسان قدره لترك الفخر والتعالي والغرور الكاذب المقيت ، وما اعجز هذه الخليقة كلها ان ترد الامس الذاهب فتقف حائرة امام قوة هذا التحدي الزمني ولامن يصمد ازاءها ، وسواء من يموت فى مقتبل عمره أو يصل الى اتعس ايام محنته ، فان جاء الموت مبكرا تحتم علينا ان نرحب به ونحرق له البخور ونقيم من اجله الطقوس فحياة الانسان : اعظم مايملك ، تغتاله يوما بعد يوم بتعاقب الليل والنهار ، وكم من خد رائع متكبر يتأبى اللمس وينفر من القبل سلطت هذه الارض عليه ترابها وصخورها وحشراتها ، وأعناق شكت من ثقل اللآلىء والعقود عادت فحملت الثرى وسارت عليها الازمان فأحـالت الرفات غبارا تناقلته الرياح باتجاهاتها الاربعة فى غربة سواحة لاقرار لها (٢٧) :

يـادهـــر يـامنجـز ايعــاده	ومخلف المأمـول مـــن وعده
اي جـديـد لـك لـم تبلـه	واي اقـرانـك لـم تـرده
تستأســر العقبان فى جـوها	وتنـزل الاعصـم مـــن فنده
أرى ذوي الفضل واضـدادهم	يجمعـهم سيـلك فى مـــده
تجـربـة الدنيا وأفعـالـهـا	حثت أخــا الزهد على زهده
ان زمـــانـي برزايـاه لـي	صيرنـي أمـــرح فى قـــده
كـــأننا في كفـــه مـــالـه	ينفق مـا يختار مـن نقـده
لـو عـرف الانســان مقداره	لـم يفخر المـولى علـى عبده

أمس الـذي مـر على قربـه   يعجز أهـل الارض عـن رده
أضحى الـذي أجـل فى سنه   مثل الـذي عـوجل فى مهده
ولا يبـالـي الميـت فى قبره   بـذمـه شيـع او حمـده
أفضـل مـا فى النفس يغتالها   فنستعيذ الـلـه مـن جنـده
كم صائن عـن قبلة خـده   سلطت الارض علـى خـده
وحـامل ثقـل الثـرى جيـده   وكـان يشكـو الثقل من عقده

ويرى الشاعر ان الموت والحياة سواء مادامت بداية الوجود ايذاناً بنهايته ، ومادام الوليد يحمل معه بذور فنائه ، ولايجد سبيلا الى تكريم الاباء والاجداد الا بالرفق في السير خوفا على الاجساد ان تزعجها الاقدام العابرة ، فأي مكان يبقى للغرور والكبرياء ، والقبور التي تملأ الارض تموت وتندرس وتتلاشى كالانسان ، تحمل معها كل تناقض وتضاد ، تضحك بجنون وتطبق فكيها على الاجداث ثم تفغر فاها دوما فى انتظار المزيد ، وليس هناك شاهد على هذه المأساة سوى الفرقدين ، أحسا أزمنة متعاقبة ومـرا على بلاد وشعوب ، وأنارا ظلمة وأقاما على زوال النهار ، وماهذه الدنيا الا تعب مستمر ، وما أعجب أمر هذا الانسان الذي يطمح دوما فى مزيد(٢٨) :

غير مجـد فى ملتي واعتقـادي   نـوح باك ولا تـرنم شـادي
وشبيـه صـوت النعي اذا قيس بصـوت البشير فـي كـل نـادي
أبكـت تلكـم الحمـامـة ام غنـت علـى فرع غصنهـا الميـاد
صـاح هـذي قبورنـا تمـلأ الرحب فـأين القبور مـن عهـد عاد
خفف الـوطء مـا اظـن اديـم الارض الا مـن هـذه الاجسـاد
وقبيـح بنـا وان قـدم العهـد هـوان الابـاء والاجـداد
سر ان اسطعت في الهواء رويداً   لا اختيالا علـى رفـات العباد
رب لحـد قد صار لحداً مرارا   ضاحك من تزاحـم الاضـداد
ودفـين علـى بقايـا دفـين   فى طويـل الازمـان والآبـاد
فأسال الفرقدين عمـن أحسـا   مـن قبيل وآنسـا مـن بلاد
كم أقـامـا على زوال نهـار   وانـارا لمـدلـج فـي سـواد
تعـب كلهـا الحيـاة فمـا أعجب الا مـن راغـب فـي ازديـاد
إن حزنـا فـي سـاعـة الموت اضعـاف سرور فـي سـاعة الميلاد

ضـجعة الموت رقـدة يستريح الجسـم فيهـاوالعيش مثـل السهاد
أبنـات الهـديـل اسـعدن او عـدن قليـل العزاء بـالاسـعاد
ايـه للـه دركـن فـأنتـن اللـواتـي يحسـن حفـظ الـوداد

ويوطىء ابو العلاء المعري كغيره من الشعراء الذين نظموا القصيـدة الفكرية لعوالم جديدة في مضامين الشعر ، استطاع آخرون ، كالخيام ، ان يستثمروها بذكاء ، وان يشيعوا فيها الاجواء الخاصة والاطر المحددة والاعمال المتكاملة ، والا يلخصوا التجارب الكبيرة بأبيات مفردة او حكمة او مثل ، فله بعد رحلة عمر طويلة ان يرحب بالموت ويدعوه لزيارته وان يرى الحياة ذميمة والدهر هازلا ، فللنفس ان تجد ، في ذلك الهزل ، وان تطيل التأمل والتفكير(٢٩) :

فيما موت زر إن الحياة ذميمـة ويانفس جدي ان دهرك هـازل

---

(١) ينظر البحث الاخير من هذا الكتاب .
(٢) ينظر للمؤلف : « حكم المتنبي ووحدة الموضوع في القصيدة العربية »، مجلة الجامعة المستنصرية ، العدد ٢ ، بغداد ١٩٧١ .
(٣) ، (٤) اللزوميات ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٨١ ، ٨٤ .
(٥) شروح سقط الزند ، القسم الثاني ، نسخة مصورة عن طبعـة دار الكتب سنة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م ، تحقيق مصطفى السقا وجماعته ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٩١٨ .
(٦) ، (٧) اللزوميات ، ص ١١٦ ، ٧٧ .
(٨) شروح سقط الزند ، القسم الثاني ، ص ٩٢٤ .
(٩) - (١٥) اللزوميات ، ص ١١٢ ، ١٨٤ ، ١٩٥ ، ٢١٣ ، ١٣٣ ، ٨٨ ، ١٥٤.
(١٦) ، (١٧) شروح سقط الزند ، القسم الاول ، ص ١٧٦ ، ٤٢٨ .
(١٨) المصدر السابق ، القسم الثالث ، ص ١٣٧٠ ، واللزوميات ، ص ٧٨ ، ١٩٩ .
(١٩) - (٢٣) شروح سقط الزند ، القسم الاول ، ص ٣٥٠ ، والقسم الثالث، ص ١٠٣٩ ، والقسم الاول ، ص ١٧٨ ، والقسم الثاني ، ص ٦٥٣ ، والقسم الثالث ، ص ١٠١٢ ، والقسم الثاني ، ص ٥٧٧ .

(٢٤) ، (٢٥) اللزوميات ، ص ١٤٩ ، ١٣٣ ، ٦٩ ، وشروح سقط الزنـد ، القسم الثاني ، ص ٦٣٥ ، ٥٣١ .

(٢٦) يقول ابو العلاء في االزوميات ، ص ٦٨ : « اولو الفضل في أوطانهـم غرباء » .

(٢٧) شروح سقط الزند ، القسم الثالث ، ص١٠١٢ ، وللمعري أبيـات كثيرة تحمل معاني متشابهة ، فهو يتحدث عن الانسان الذي يستحيل طينا وفخارا تصنع منه الاواني فيقول في اللزوميات ، ص ٨٠ :

لعـل انـاء منـــه يصنـــع مــــرة
فيأكـــل فيه مـــن أراد ويشـــرب
ويحمل من أرض لاخرى ومـا درى
فواهــــا لــه بعــد البلى يتغـــرب

(٢٨) ، (٢٩) شروح سقط الزند ، القسم الثالث ، ص ٩٧١ ومابعدها .

الأزمنة الضائعة

ويبطىء الزمن بعد عصر ابي العلاء ويتوقف وينطفىء بسقوط الحضارة فى بغداد ، ويمر بعهود من السبات امتدت سنوات طويلة حتى مطالع هـذا القرن ، لفت في ابعادها جموعا لم تحس بالزمنية وكانت وطأة الحياة الثقيلة تخمد فى الاذهان جذوتها ، فتستغرق الناس ماضيا وحاضرا ومستقبلا دون ان يدركوا مداها وتسلمهم الى مصائرهم بقبول ساذج ، وتضيق الدوائر في افكار الشعراء وتعود تضيق وتتقلص فيفلت منها الوقت وتعيش خارج مداه بركود وموات وتقوم معادلة بين الحضارة والزمن ، ينأى اذا انحسرت ويتبلور ويتضح اذا ازدهت •

ونجد مضامين دواوين اكثر الشعراء فيما بعد المعري حتى العصر الحديث تتحرك في أطر مقلدة وافكار معادة وصيغ مطروقة مألوفة ، تؤمن بالا جديد تحت الشمس ، فتقبس معاني الاقدمين وتوغل فيها تفصيلا ، فـلا حاضر تستمد منه ماضيا تحيا ذكرياته وأمجاده ، ويستحيل فيها المستقبل الى مرور وقتي في الحاضر لاقيمة له • ويغرق الشعر في الصيغ اللفظية البلاغية تعويضا عن الافكار الضائعة والاخيلة الميتة والزمنية الخابية ، ويصبح وسيلة سهلة للارتزاق والحصول على الجوائز والاعطيات ، بمديح تقليدي لايليق بكرامة الانسان الشاعر ، ولم يعد للابداع مكان فيه ويتناول الشعراء مايخطر على ذهنهم من معان حتى ولو كانت غريبة بعيدة عن روح الشعر ، ويفتقد انتاجهم التجربة الفردية الشخصية والاجتماعية العامة فيعيشون على فتات موائد الماضين ويستوحون أخيلتهم ، وليس لهم ان يضيفوا الى التراث شيئاً يعتد به ، فثقافتهم محدودة وآفاقهم ضيقة ، فهم ضحية ظروفهم ومتطلبات حياتهم ، لجأوا الى الاسلوب المباشر والروح الخطابية للتأثير فى السامعين ، ولتغطية الضعف الذي عانت منه قصائدهم ، وعبثا نحاول ان نجد رؤيا واضحة عند هؤلاء الشعراء تؤدي بنا الى نصوص تقرب من التكامل فى النص الادبي ، ويضيع سدى فى تلك العصور ابداع النواسي وابي تمام والمتنبي وابي العلاء الذي أرسى بعض معالم الادب الفكري ، وكان منطق الاشياء يوحي بازدهاره

وتكامله فى العهود التالية لولا ان تلاشى الزمن في هوة العـدم وسـقط التطور فى وهدة التخلف وصبغ الغزاة الحضارة بالدم والدمار ، وتحطمت انجازات العصور الزاهية ، وعاش الناس مأساة أزمنتهم الضائعة ووجودهم السائب ومجتمعاتهم التي حبت خارج الزمن وعانت من تخلف وتدهور مريرين •

ومن ابرز شعراء بدايات تلك الفترة صفي الدين الحلي[1] ، حاول ان يأتي بمضامين جديدة واولع بالبديع ومحاكاة وتقليد الاقدمين ، ولم يخل شعره من شكوى ، ووعى وطأة العصر الشديدة وعناء الايام التي ركد فيها الزمن ، وحتمية مصير الانسان[2] :

لـدوا للمـوت وابنوا للخراب	فما فـوق التراب الـى التراب
فسرجـع كـل حـي للمنايـا	وغايـة كـل ملـك للـذهاب
بنو الـدنيا فرائس للمنـايـا	ونـاب الموت عنـها غير نـاب
ومـن يغتـر فى الـدنيا بعيش	فقـد طلب الشراب من السراب

* * *

لاتعجبن فما فى الموت من عجب	اذ ذاك حد به الانسان محـدود
فالمستفـاد مـن الايام مرتجـع	والمستعـار مـن الاعمار مردود

* * *

ان خيـول الـدهر ان طاردت	اتبعـت الأول بـالآخـر
لاتحرصـن منـه عـلى مورد	فغـايـة الـوارد كـالصـادر

وترد الاحاديث عن الدهر وافاعيله والزمان ومصائبه والموت والحياة فى التعازي والمراثي[3] :

ماكنـت أخشى الزمان حتى غدا	خصمي لعلمي بأنـك الحكـم
كففت عنـا كف الخطوب فمن	بعـدك أمسـى الزمان ينتقـم

ويرى ان الحياة سراب خادع لافائدة فيه[4] :

يابـدوراً تغيب تحـت التراب	وجبـالا تمـر مـر السحـاب
ان في ذلـك اعتبـاراً وذكرى	يتوعـى بهـا ذوو الالبـاب

قــل لصــادي الآمــال لاترد العيش فــان الحيــاة لمــع الســراب

وعلى طريقة الشعراء الاخرين ، يبرز الممدوح خصما للزمن يدفع عنه غوائله وكوارثه ، ويرى الايام تجري بالناس سريعة الى حتفها ، ويجد الدهر حاديا يتهادى بالخلق الى الهلاك ويتساءل عن الماضين ، ما الذي بقي منهم منذ عهد عاد ، وما الذي يستطيع الشاعر ان يفعله وقد اودى الموت بالممدوح ايضاً[٥] :

غير ان الايــام بالخلــق تجري   لبلــوغ الآجــال جري الجيــاد
كيف ترجو المقام والخلق ســفر   نحــن ركب وحادث الدهر حادي
ايــن رب الســرير والحيرة البيضـــاء ام ايــن رب ذات العمــاد

ويتعاقب بعد الحلي شعراء كثيرون لم تتح لهم الحياة سوى التقليد ، وتقليد التقليد ، واغراق الشعر بالاعادة والتكرار ولــيس لهم ان يبدعوا ويبتكروا فقد كانوا حصيلة معطيات حضارة وثقافة عصورهم ومجتمعاتهم ، ولم يخرجوا فيما نظموه عن الأطر القديمة ، وافتقدوا الميدان الوحيد الذي كان عليهم ان يبرزوا فيه وهو الشكوى من الزمن ومن الدهر وما جرته عليهم العهود الطويلــة من ويلات وكوارث ، وتمتــد الأيام والأعوام ويوغــل الزمن فيهــا ضياعــا وجهد الانســان تبديــدا وهبــاء ، وفــي نهايات تلك الفترة يظهر شاعر آخر قد يقابل زمنياً صفي الدين الحلي الذي هيء له أن يظهر في بداياتها ، ويعيد ما ذكره اسلافه ويغرق شعره بالمديح ، ولكنه ايضا يتحدث عن الدهر وعن الزمن •

يقول عبد الغفار الاخرس[٦] في قصيدة رثاء[٧] :

نــؤمــل ان يطول بنــا الثواء   ونطمــع بــالبقــاء ولا بقــاء
وتغرينــا المطــامــع بالأمــاني   ومــا يجري القضــاء كمــا نشاء
تحــدثنــا بــآمــال طـــوال   ولــيس حــديثهــا الا افتــراء
وان حيــاتنــا الــدنيــا غرور   وسعــي بــالتكلــف واعتنــاء
نســر بمــا نســاء بــه ونشقى   ومــن عجــب نسر بما نســاء
ونضحــك آمنــين ولــو عقلنا   لحــق لنــا التغــابن والبكــاء
الــى م يصدنا لعــب ولهـــو   عــن العظة التــي فيهــا ارعواء
وتنذرنــا المنــون ونحن صــم   اذا مــا أســمع الصــم النــداء

وايــة لــذة فى دار دنيـــــا ... تلــذ لنــا ومــا فيهــا عنــاء
ســتدركنا المنية حيــث كنــا ... وهــل ينجي مــن القــدر النجاء
ظهرنــا للــوجود وكــل شــيء ... لـــه بـــدء لعمرك وانتهــاء
متى تصفو لنــا الــدنيا فنصفو ... ونحن كمــا تــرى طــين ومــاء
فهــذا السقــم ليس لــه طبيب ... وهــذا الــداء ليــس لــه دواء

ولا نجد فى هذه القصيدة معاني جديدة واضافات الى ما جاء به الشعراء الاسبقون ، ولا نرى فيها سوى مايعرفه الناس من أن الموت نهاية كل حي ، وأن الانســان يطمــع فــي البقــاء ، ولا بقــاء ، وان حــديث الامانــي افتراء ، وحياتنا غرور ، ولا تتعظ ، ولا تصفو الدنيا ، وهذه ادواء لادواء لها ... الخ [8] :

رمينــا بأدهى المعضلات النوايب ... وفقد الذي نرجو اجل المصايب
وغــائب قوم لايرجى ايــابــه ... وما غائب تحت التراب بآيــب
نؤمــل فى الــدنيا حياة هنيــة ... ومــا نحــن الا عرضة للمصايب
ونغتر فى برق المنى وهــو خلب ... وهيهات مــا في الآل ماء لشارب
نصــدق آمالا محــالا بلوغها ... ومن أعجب الاشياء تصديق كاذب
تسالمنــا الأيام والقصــد حربنا ... ومــا هي الا خدعة من محارب
ونطمــع ان تبقى ويبقى نعيمها ... فلم يبق منها غير حسرة خائــب
فلا تحسبن الدهر يوفي بعهــده ... أبى الله ان يرعى ذماراً لصاحب
وان الليالــي لاتــدوم بحالة ... وهل تترك الاحداث كسبا لكاسب
ولا يدفع السيف المنيــة والقنا ... وتمضي سيوف الله من غيرضارب

فالموت لارجوع من بعده ، والناس عرضة للمصائب وان أملوا فى الدنيا حياة هنيئة ، والبرق خلب وليس فى سراب هذه الحياة ماء او ظلال ، وتخادعنا الايــام ولا يبقى من النعيم غير الحسرات ... الــخ ، ولعل نماذج الحلي والاخرس ، بدءا وانتهاءا ، خير ماقدمته الازمنة الضائعة من اشعار تتناول

قضايا الدهر والزمن ، ولا نرى فيها وفي مثيلاتها سوى التكرار والتقليد ، وتتطلع بعدها الى شعراء يمثلون عصرهم بحق ويتفهمون ابعاد الزمن الذي عبروا عنه .

---

(١) ولد سنة ٦٧٧ هـ ـ ١٢٢٨ م ، وتوفي ٧٥٠ هـ ـ ١٣٤٩ م .

(٢) ـ (٥) ديوان صفي الدين الحلي ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٣٨٦ ، ٣٥٦ ، ٣٥٣ ، ٣٣٠ ، ٣٣٩ ، ٣٥٠ .

(٦) توفي سنة ١٨٧٤ ، تنظر ترجمته في كتاب المؤلف : الشعر العراقي الحديث، مرحلة وتطور ، ص ١١ ومابعدها .

(٧) ، (٨) الطراز الانفس في شعر الاخرس ، تحقيق احمد عزة الفاروقي ، استانبول ١٨٨٦ ، ص ١٦ ، ٥٠ .

ظاهرة غير زمنية

يدرك الزهاوي أواخر الازمنة الضائعة ويقيم فى القرن العشرين ستاً وثلاثين سنة[1] يبحث عن الزمنية الحديثة ، ويتأرجح بين الحدين ، ويدرك مافات وينتظر الذي سيأتي ، وتضطرب عنده الافكار والتطلعات ، ويضرب هنا وهناك ، ويتوجس ويجرؤ ، ويتناول شعره موضوعات متنوعة ، منها : الفلك والجغرافيا ومحاربة الجهل ووصف المخترعات والتصوف والغزل والجاذبية ونظرية دارون والقضاء على الفقر وانشاء المدارس والمستشفيات، والمطالبة بحقوق المراة ، والفلسفة والمنطق ... الخ ، وكأنه يريد ان يثأر للموضوعات التي افتقدتها تلك الازمنة الضائعة والتطور الذي توقف فيها ومضامين الشعراء التي اهلكها التقليد والتكرار .

ومزج الزهاوي الفلسفة بالشعر وسمي بشاعر الفلاسفة او فيلسوف الشعراء ولم يخرج الينا بفلسفة محددة او بشعر ، يمكن ان يسمى فلسفيا ، ولكن ماكتب شكل ظاهرة تفوق اهميتها التاريخية درجتها من الابداع كثيرا ، وبدا كحارس لبوابة العهود الجديدة ، يزحم المواكب المرتدة الى الازمنة الضائعة ، ويفتح كوى صغيرة للمستقبل القريب فيسهم بقدر فى توطئة الطريق نحو انسان الغد الاتي برؤياه الواضحة وزمنيته الصائبة ،ويدعو فى اشعاره الى المستقبلية والتقدم ، ولا يملك سوى افعال الامر[2] ، والى نبذ العوالم العتيقة المتهرئة ، ولا يقدم البديل ، والى الابتكار وترك التقليد ؛ ولايبدع نماذج غير مألوفة ، والى التطور والتغيير ، وليس له موقف فكري محدد ، وشكل هذا وذاك الظاهرة الزهاوية الغريبة التي لايخطئها الباحث ، وكان للزمن فى شعره نصيب ، فهل أتى بأفكار جديدة افتقدتها اخيلة ابي الطيب والمعري ؟ !

يرى الشاعر تشابها ورتابة فى الماضي والحاضر والمستقبل ، فالأيام سواء ، وسيصبح المستقبل حاضراً وينضم الى الماضي ، والحاضر كان مستقبلا وسيغدو ماضيا ، فلا مبرر لهذا التقسيم الزمني ، وابعاده الثلاثة نوع من الخرافة ، والرزايا تتوالى على الانسان فلا يفرط

ـموعه كلها ويدخر منها ما يكفي للنكبات الاتية ، والشاعر يخبط فى الظلام . يـدري أكانت سعادته فى الماضي ام أنها تكمن في المستقبل ، ويود لـو تم ـه حمود ويرى ان البقاء فى هذه الدنيا يطيل من همه ،وليس فيها ما يجدي ، ـقد متلأت القبور بصحبه وخلانه ، ولا يستطيع ان يقنع نفسه بترك ـب فيأسى ويحزن(٣) :

ـست من الايـام يانفس انها | تشابه منها الامس واليوم والغد
تقون لباك صن من الدمع بعضه | لآتـي الرزايـا انهـا تتجـدد
ومابي على عينيك خوف من العمى | اذا بكتا لكن دموعـك تنفـذ

* * *

ـت أدري كخابط فى ظـلام | أورائي سـعادتي ام أمـامي
ـجرت نفسي من توالى الليالي | واستملت تعـاقب الايـام

* * *

حت الـدهور ومرت الاعصار | والـليل ليل والنهـار نهـار

* * *

ـيـد لو استتب لي الخلـود | ولكن ايـن مني مـا أريـد
ـسى ان البقاء يطيـل همـي | ومـا فى ريشـه مـا استفيـد
ولـيـس بنافعي شيئـاً بقائي | وقد غصت بأصحابي اللحـود
ولكـن كيف اقناعي لنفسـ | تعـلقهـا بـدنياهـا شـديد
لعمرك قـد تشـابهت الليالـي | فما في عودها شـيء جـديـد
نهـار بعـده يـأتـي نهـار | وليـل كلمـا ولـى يعـود
ولـم أر منهـلا كالموت عـذباً | علـى طرفيـه يزدحـم الورود

ويبشر الزهاوي بمستقبل جديد ، تحار فيه العقول بما ترى الابصار يموت فيه الموت ، ويعانق الخلود الحياة ، وتزول المشكلات ، ولـكنه يفصح كيف سيحل هذا المستقبل ؟ وبم ستتوطد أركان الخلود فيه ؟ وكيف ـرك المنون الموت ؟ فيزيد من وطأة خرافة انتظار الانسان لذلك المستقبل ، . جدوى ، ويهمل حاضره المتخلف وواقعه البائس (٤) :

فى الـكـون بعـد عصـور | يـكـون مـا لا يـكـون

حتى تحـــار عقــول   فيمـا تـــراه العيـــون
وســـوف يأتي زمـــان   تمـــوت فيه المنـــون

ويرى فى أبيات اخـرى ان المستقبل ستبنيه ارادة التغيير ، وستفديه أجيال بدمائها وتعمل وتناضل وتضحي لتسعد انسان الغد الاتي[٥] :

مضى مامضى لاعاد واليوم فاستمع   الـى لهجة التـاريخ كيف تقول
ستكتب فيـه بالـدماء حوادث   وتقرأ للويـلات فيـه فصـول
ويـذهب هذا الجيل نضو شقائه   ويأتي سـعيداً بالسلامـة جيل

وبالرغم من دعوته الى التغيير والقضاء على الامراض الاجتماعية والعمل على حلول المستقبل الافضل ، والثأر من الازمنة التي ضاعت فيما بعد عصر ابي العلاء حتى مطلع هذا القرن ، يظهر تناقض الشاعر بوضوح فى دعوته للعودة الى الماضي ، ورجوع الاشياء كما كانت ، وتقهقر الزمن الى الوراء وكونه صوراً متتابعة مضمحلة ولهواً وسخرية ، وفصولا اربعة ، منها الربيع ، ولذلك الزمن الوان ايضا منها الاغبر والاخضر[٦] :

أملـي ان يعود ذاك المـاضـي   غـامراً لـي بسيبـه الـفياض
ويعود الربيـع غضـاً فأمشـي   جـانيـاً للأزهار بين الريـاض

* * *

ليـت الزمان يدور في استمراره   فتعود مثـل قديمهـا الاشـياء

* * *

ذهـــب الـزمـــان الاغبـر   واتـى الـزمـــان الاخضـر

* * *

اتت صور المـاضي تباعاً فمثلت   لعيني لهواً مر ثـم اضـمحلت

ويعيد أخيلة ومعاني سبق اليها المتنبي والمعري والخيام[٧] وشعراء آخرون ، فابتسامات الزمان خادعة ، والموت سيغمض العين الدعجاء ويلوي الجيد الاتلع ، والبقاء فى هذه الحياة امنية لاتتحقق ، فالاجيال تتعاقب على الموت وكأن الهلاك وصية يورثها الآباء للابناء ، وكل حي ستصيبه سهام المنية. والاجساد قيود للارواح اطلقتها المنايا ، فلا يليق الغرور بالانسان الـذي

تحداه ابو العلاء ان يسير في الهواء واراد له الزهاوي ان يخفف الوطء ايضاً ، فأكثر هذه الترب عظام وضلوع وصدور سحقتها الايام والدهور ، والقبور مليئة باجساد بليت منها الاوصال والاحداق والوجنات[8] :

علمت من الايام ان الهوى عمى   وان ابتسامات الزمان خدوع
ورب عيون وهي دعجاء اغمضت   وجيد لواه الكرب وهو تليع

* * *

تتمنى للعيش في هذه الدنيا   ثباتا وهل لعيش ثبات
غرض كل من على الارض يحيا   لمنايا سهامها صائبات
ربما في القبور تشبع نوما   آنسات عيونها ناعسات
بليت اوصال هناك وخوفي   أنهن الاحداق والوجنات

* * *

سوف يلقي رحاله كل حي   حيث القى اهل العصور الاولى
تلك ارواح اطلقتها المنايا   فكأن الاجساد كانت كبولا
وكأن الذين عاشوا وماتوا   قد تواصوا بالهلك جيلا فجيلا

* * *

صعرت خدك كبراً   وأنت طين وماء
اخفض فليس جديرا   بمثلك الكبرياء

* * *

أكثر الترب عظام   من ضلوع وصدور
سحقتها أرجل الدهر   واقدام العصور

فيدعو الى اللذة المطلقة مادمنا لانأتي الى هذه الدنيا مرتين ، والمصائب تتوالى فيفزع منها لها ، ولا بد من خداع النفس والا اصبحت خصماً لدوداً ، ولا تجدي لهفة او تأمل ، والايام تقتل الانسان وتسير في موكب تشييعه فترتدي الليالي لباس الحداد[9] :

لاتقف في وجه لذاتك مكتوف اليدين
انت لاتأتي الى دنياك هذي مرتين

* * *

إنا لنفزع مــن مصائب لاجئين الــى مصائب

* * *

خادعت نفسي حين لــم أر من خداع النفس بــدا
إنــي اذا خالفتها كــانت لــي الخصــم الالــدا

* * *

قتلتنــا الأيــام قتــلاً ذريعــاً والليالي لبســن ثــوب حــداد

وبعد طول تأمــل فى الوجود يصل الشاعر الى ان الزمن ساكــن ، وان الحركة كامنة فى الاجسام ، ولابد انه يقتبس هذا المعنى شعريا من بعض النظريات الحديثة فيتحول الى الزمكان والامتداد الى الجهات الاربع ، والكهيربات التي تولد الحياة في الخلايا[١٠] :

قد خبرت الوجود فــي كل حال فوجــدت الزمان فى السكنات
قد بدا لي ان الزمان ســكون بين مــا للاجسام مــن حركات
ووجــدت امتــداد كــل مكين حاصلا مــن مكانــه في الجهات
ووجــدت الكهيربــات بأحشــ ــاء الخلايــا مولــدات الحياة

وبهذا التناقض فى الافكار والزمنية المضطربة وعدم ثبوت قيم لابعادها في ذهنه يحاول جميل صدقي الزهاوي ان ينهي عهود الازمنة الضائعة ويفتح الابواب امام مستقبل انسان القرن العشرين الذي يمسك بزمنيته الراهنة ويعمل من اجل القرن الواحد والعشرين ، والقرون التي تليه •

---

(١) توفي سنة ١٩٣٦ ، وتجد ترجمته كاملة ودراسة شعره في كتاب المؤلف: الشعر العراقي الحديث ، مرحلة وتطور ، ص ٣٧ ومابعدها .

(٢) تنظر مقالة المؤلف : « الشعر وافعال الامر والتصميم » مجلة الاداب ، العدد ١٠ ، بيروت ١٩٦٧ .

(٣) ـ (٦) ديوان الزهاوي ، القاهرة ١٩٢٤ ، ص ٢٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٢٨ ، ٥٢ ، ١٧٠ ، ٢٩٩ ، ١٧٨ ، ١٤٩ ، ٣٢ .

(٧) تنظر ص ٤٥ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٨) ديوان الزهاوي ، ص ٢١ ، ٢٤ ، ١٧٣ ، ورباعيات الزهاوي ، ج٣ ، بيروت ١٩٢٤ ، ص ٩٣ ، ١٤٢ .

(٩) رباعيات الزهاوي ، ص ٩١ ، وديوان الزهاوي ، ص ٢١ ، ٢٦ ، ٢٦٤ .

(١٠) ديوان الزهاوي ، ص ٣٦ .

الزمن والاصلاح

وجد الرصافي[1] معاصريه غارقين ، بعد ، في الازمنة الضائعة والخرافة السائدة فرفض سطوة التاريخ على الاذهان ، وتشابك الماضي والمستقبل في الحاضر ، ضد طبيعة الزمن ومنطق الاشياء ، يـزحم الاول الثاني في صراع الانسان من اجل العالم الافضل ، ودعا الى الانتفاع بتجارب الاخرين ووراثة خير ما توصل اليه البشر من كشف وريادة دون ان يستعمر الماضي الحاضر !

ويتبلور الزمن عنده ويتضح وتتحدد بعض معالمه ولا يسود التناقض اراءه فيه ، ويتخذ نهجا اصلاحيا فى فهمه له ، ويبدو ان فوضى الافكار عند الزهاوي تستقر فى اشعار الرصافي بسيطة واضحة مباشرة ، ويضع الرصافي لشعره هدفا اصلاحيا[2] في بيئة رضخت طـويلا لارادة المحكومين بالازمنة الضائعة ، مازالت بقاياهم تغتال في البشر التوقد والتقدم والطموح ، رغم سنوات القرن العشرين وثورات الانسان لخلق العالم الجديد ، ولا يملك الشاعر فىدنيا الاصلاح غير القوافي التي تؤثر ، لاشك ، بدرجة تتفاوت فى هذا الظرف او ذاك ، وتسهم بقدر في النهضة من رقاد العهود الفائتة •

وحارب الرصافي ، مع مفكري مطالع القرن العشرين ، الجانب البليد في تلك الازمنة الضائعة ، ودعا الى نبذه ، فهو المـوت في الحاضر ، وخيبة الانسانية في الفكر ، وتخاذل الطموح في التاريخ[3] :

ولست من الذين يـرون خيرا   بـابقاء الحقيقـة فـي الخفـاء
ولا ممن قـد ارتبطوا بمـاض   فعاشوا ينظرون الـى الـوراء

فينبه الى ان المستقبل أولى من الماضي لمن يطمح في التفوق والسيادة وان الحاضر الشقي لايجدي معه الماضي السعيد وان الخيبة القائمة لايبررها مجد ذهبي سابق ، ويحث على التقدم ويرفض الفخر الباهت الذي يـزيد الانسان المعاصر خمولا ، ويفلسف تخلفه عن الركب وعيشه في الحلم ، وانكاره للقيم الانسانية ، واتكاليته ، ولامبالاته بالـكوارث الفردية والاجتماعية

والسياسية التي تحل به ، وليس لمستعمر توطئة وتمهيد فى بلاد أحسن من ان يحيا انسانها امجاد اسلافه ، دون ان يعمل على بقائها وتطورها ، يضيف اليها انجازات معاصرة حقيقية فتتوهج الشعلة الخالدة التي تتناقلها الاجيال بتعاقب الايام والعصور ، فيزول استغلال الانسان للانسان واستثمار دولة لشعوب واستقطاع اجزاء سليبة فى وطن متماسك بوعي ابنائه لمنطق الزمن ، يقيمون حاضرا جديدا يليق بماضيهم العتيد ويبنون المستقبل المشرق[٤] :

أرى مستقبـل الايـــام أولى بمطمح من يحـاول ان يســودا
فــوجه وجــه عزمك نحــو آت ولا تــلفت الــى المــاضين جيدا
وهل ان كــان حــاضرنا شقياً نســود بكــون ماضينا سعيدا
تقــدم ايهــا العربي شــوطــاً فــان أمــامك العيش الرغيدا
وأسس فى بنائك كــل مجــد طريف واتــرك المجــد التليدا
فشــر العالمــين ذوو خمـــول اذا فــاخرتم ذكروا الجــدودا
وخير الناســ ذو حسب قديم أقــام لنفسه حسباً جــديــدا

ولم يبق للزمن الذي لاينهمك ابناؤه بالعمل والسعي والبناء مكان فى العالم الحديث[٥] :

مات الزمان الذي من قبل كان به يحيا امرؤ لم يكن فى السعي ينهمك

والشاعر يأسى لحال امته التي دار الزمان لها ، من قبل ، فعملت على ازدهار حضارة الانسان ولكن الكوارث اضاعت منها احقاباً ولها ان تستعيد دورها التاريخي وان تستفيد من الماضي ومن تراثه بمعاصرة تليق بمن يريد ان يتمم الرحلة[٦] :

أبكي على أمة دار الــزمان لها قبلا ودار عليها بعــد بــالغير

ويخاطب بغداد ويذكرها بمجدها الغابر أيام كــانت عاصمة الدنيا : ابينها والزمان ثأر وعداء ، الا يحق لها ثانية ان ترتدي ذلك الرداء التاريخي المجيد ، فى عصر حديث ، فتتألق على هذا الكوكب الارضي السابح فى مدار الزمن[٧] :

قلب الــزمــان اليك ظهر مجنه أفكــان عنــدك للزمــان ترات

ويدعو بعنف الى المستقبل فالصراع قائم في العالم بين قوى تنحسر الى الماضي وتجر معها الشعوب لتستأثر دونها بخيرات الحاضر وتستحوذ على المستقبل ، وبين العاملين لخير الانسان المتطلعين دوما نحو الغد الاتي والمؤمنين بأن العلم من دعائم المستقبل السعيد ، فالجهل خيانة وطنية والناس الذين لايهتدون بالعلم أموات يسيرون بثياب هـي الاكفان ويسكنون بيوتاً هي القبور[٨] :

اذا ماعق موطنهم اناس ولم يبنوا بـه للعلم دورا
فان ثيابهم أكفان موتى وليس بيوتهم الا قبورا

ويحث الجموع الا تستكين للعتاة الظالمين الذين يسخرون بالشعوب ويعطلون فيها الزمن فسيأتي اليوم الذي يرتد الهزء اليهم وتحيق السخرية بهم[٩] :

ياقوم قد حان حين تسخرون بـه ممن بكم سخروا من قبل اوضحكوا

ويرى ان تباشير المستقبل تلوح في الافق فيدعو مواطنيه ان ينتهبوا الايام وان يستثمروا تجارب حاضرهم وماضيهم للحاق بركب الزمن السائر[١٠] :

انني مبصر تباشير صبح مستفيض على ظلام الاماني
انني استشف من غير الدهر انقلابا يعم كل مكان
معشر العرب اين انتم من القوم اذا ما تم انقلاب الزمان
أنيام والدهر يفتح فيكم من جديديه مقلتي يقظان

ويحار الشاعر بألغاز هذا الوجود ، كيف كانت البداية والى ايـن تسير النهاية ؟ هل الفناء أصل الوجود ام الوجود سائر الى فناء واختفاء ؟ ولايقع الشاعر على جواب ويتخبط في ظلمات[١١] :

من أين من أين ياابتدائي ثم الى اين ياانتهائي
أمن فناء الى وجود ومن وجود الى فناء
ام من وجود له اختفاء الى وجود بلا اختفاء
خرجت من ظلمة لأخرى فما أمامي وما ورائي

ياقوم هل فى الـزمـان نطس   يـهدي الـى ناجـع الـدواء
لأي امـر ذه الليـالـي   تأتـي وتمضي علـى الـولاء

ويظن الدهر شاعرا ينظم الحادثات قصائد يهديها للانسان الذي يمثل بيتا منها اوله مصائب وآخره موت[١٢] :

وما حادثات الـدهر الا قصائد   يفوه بهـا للسامعين فم الـدهر
وما المرء الا بيت شعر عروضه   مصائب لكن ضربه حفرة القبر
وتنظمنا الايـام شـعراً وانـما   ترد المنايـا ما نظمن الـى النثر

وتدفعه هواجس ان بالدهر او بأهليه مسا من الجنون فليس هناك تفسير للغز الحياة ويشك حتى فى الزمن الذي يضفي على الاموات مناقب متوهمة يجرد منها الاحياء وتؤدي به ثورته النفسية الى ان ينكر التاريخ ، ولكن الغاءه قطع للحاضر عن الماضي واضرار بالمستقبل ، فعجلة الزمن تسير بأبعادها الثلاثة ، فهو لا ينكر من ذلك التاريخ الا الاسطورة والوهم والخرافة[١٣] :

أقـول وطرفى فى المحال محدق   أبالدهر مـس أم بأهليه أولق
امـا للغيـزاء الـزمـان مفسر   فقد حـار فيها الالمعي المدقق
لقد خـامرتني في الزمان وأهله   شـكوك عليها يعـذر المتزندق
أرى الـدهر فى أمرين يعمل دائباً   صناع اليديـن فيهمـا يتأنـق
يجدد للموتى مناقب لـم تكن   لـديهم وللاحياء يبلي ويخلـق
فما كتب التاريخ فى كل ماروت   لقـرائـها الا حـديث مـلفق

ويتعذر البقاء فى هذه الدنيا ولا نفع لجاه او غنى فيها ، تتبدل وتتغير ولاتبقى على حال ، واي تعليل لاحداثها تخدير للانسان وتعطيل لقواه ، ويضل الشاعر في حيرة وذهول[١٤] :

هـي دنيـا بقاؤهـا مسـتحيل   فليقف عنـد حـده التأميـل
ليس يغني فيها عـن المرء شيئاً   شـرف بـاذخ ومجـد أثيـل
انما الـراحـة المـرجـاة فيها   تعب والهوى بهـا تضليل
كـل شيء فى أهلها مسـتعار   مـن سـواه وكل حال تحول
ليس مـا قـد جنى علينـا بهـا الافقـار ادهى مما جنـى التمويـل

رتلت ألسن اللذائذ آى العيش فيها فغرنا الترتيل
فرجونا طول البقاء وان كنا علمنا بأننا سنزول
وطلبنا تعلة لنفوس ليس يشفي غليلها التعليل
قد قتلت الحياة خبراً ولكن أنا منها بحيرتي مقتول
كل ما قيل فى الحياة ظنون جرها في افتكارنا التخييل
كلنا خابطون في ظلمات حائر بائر بهن الدليل
إن حب الحياة أوهم أن الموت نوم تحت الثرى لايطول

وقد سبر غور الدهور والازمان ومخضها بتجاربه الصادقة فبانت له عواقبها الخادعة فليس لها ادراك او وعي ، وقد مالت بصفوها الى الاشرار من الناس[١٥] :

سبرت زماني بالنهى ومخضته بتجربتي حتى تجلت عواقبه
ولم استشر في الناس الا تجاربي وهل يصدق الانسان الا تجاربه
وما عجبي في الدهر الا لواحد وان كثرت فى كل يوم عجائبه
وذلك ان العيش فيه مطيب لمن خبثت بالمخزيات مكاسبه
ولو كان فى اعماله الدهر عاقلا لما كان مثلي في الورى من يحاسبه
ولو لم يكن فى كل ما فيه خادعاً لما أم فيه صادق الفجر كاذبه

ويتمنى الشاعر لشبابه بقاءاً ويود لو كان عمر الانسان كالبدر ، يولد ويكبر ويتكامل ثم يتناقص ويختفي ويولد ثانية فى دورة ازلية او يكون كالاشجار التي تعرى فى الشتاء وتعود تورق فى الصيف على مدار الفصول الاربعة[١٦] :

وانما العمر شباب فاذا زال فخرق وشقاء وضنى
ليت الفتى كالبدر فى النشأة اذ عاد هلالا كل شهر فنما
او ليته كالشجر النابت اذ يورق في الصيف ويعرى في الشتا

ويبقى سادراً فى حيرته ، يضطرب كالسفينة التي تجري على هواها بلا شراع او ملاح[١٧] :

فأنا اليوم كالسفينة تجري لاشراع لها ولا ملاح

حتى يوقن باستحالة الخلود ولكن النهاية الفاجعة لاتبرر الموت في الحياة ، وللانسان ان يمثل دوره كاملا وان يبقي في العالمين ذكرا ، يدوم مع النجوم ، وان يعمل من اجل مستقبل سعيد ، وذاك هو الخلود[18] :

تيقظ فما انت بالخالد ... ولا حادث الدهر بالراقد
فخلد بسعيك مجدا يدوم ... دوام النجوم بلا جاحد
ولاتك مرمى بداء السكون ... فتصبح كالحجر الجامد
اذا اطردت حركات الحياة ... ومرت على نسق واحد
ولم تتنوع افانينها ... ودامت بوجه لها بارد
ولم تتجدد لها شملة ... من السعي فى الشرف الخالد
فما هي الا حياة السوام ... تجول من العيش في نافد
وما يرتجى من حياة امرىء ... كماء على سبخة راكد
وليس له فى غضون الحياة ... سوى النفس النازل الصاعد
يغض على الجهل أجفانه ... ويرضى من العيش بالكاسد
فذاك هو الميت في قومه ... وان كان فى المجلس الحاشد

ومع الزهاوي والرصافي وشعراء مطالع القرن العشرين أصبحت نهاية الانسان لا تبرر قعوده عن السعي في سبيل مجتمعه وبلاده والبشرية جمعاء وتطلعه ، ان منح تميزا وابداعا ، الى خلود دائم يحفظ له دوره بين البشر ووراثة الاجيال والتجارب وامرار المستقبل في خير حاضر لماض يتوهج بالكشف والريادة .

---

(١) توفي سنة ١٩٤٥ ، تجد ترجمته كاملة ودراسة شعره في كتاب المؤلف : الشعر العراقي الحديث ، مرحلة وتطور ، ص ٥٢ ومابعدها .

(٢) جاء في وصية الرصافي : « كل ماكتبته من نظم ونثر لم اجعل هدفي منه منفعتي الشخصية وانما قصدت به منفعة المجتمع » ، ينظر : مصطفى علي ، الرصافي ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ٤٣ .

(٣) ــ (١٨) ديوان الرصافي ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٨٩ ، ٣٥ ، ٣٩٠ ، ٦٤ ، ١٠٥ ، ٥٢ ، ٣٩٠ ، ٤٧٤ ، ١٣ ، ٦ ، ٣٥٦ ، ٣١٢ ، ٧٠ ، ٢٠٩ ، ٤١٨ ، ١٦٠ .

رفض الزمن المطلق

ان ارادة التطور والتغيير وجـدت لها صدى خطابيا واسعا فى النتاج الشعري للنصف الاول من القرن العشرين ، واتخذ الزمن شكلا اصلاحيا فى قصائد الشعراء برفض الحياة القائمة على الانخذال ، وكانت للأوامر الشعرية عند الزهاوي والرصافي ورهطهما دور فى المحافل ، يزول تأثيره بعد انفضاضها دون ان يقدم البديل والحل او يختط النهج والطريقة او يعين على اتخاذ موقف من العصر والزمن ، وتتحلل تلك الاوامر الشعرية عند الجواهري[1] فى خط فكري واضح يبحث عـن عوالم جديدة ، وفى ميدان الاصلاح وما يصاحبه من تبدل وتغيير تأتي زمنية محددة ، فهل نجد فى شعر الجواهري مسارا لها يضفي لونا جديدا مغايرا لما عهدناه من معاصريه والشعراء الذين سبقوهم عبر العصور منذ ايام جلجامش وطرفة وابي نواس ؟ او يقـدم مفهومـا حديثا ؟ او يعرض رداءا عصريا بديلا عن اسمال العهود الضائعة ؟ !

وفى رحلة البحث عـن زمنية جواهرية ، خلال قصائد استغرقت نصف قرن او أكثر نجد خطوطا متنافرة متنوعة تتغير تبعا للظرف والحالة النفسية والموقف الفكري والاجتماعي ، فالشاعر لايهمه الدهر احيانا ويـدعو الى تجاوزه ، ويرى الشكوى من الزمن تهربا من المسؤولية ، وبراءة الانسان من تبعية الاحداث والقائها على عوائق الدهر ، فعليه أن يصنع مصيره ويريـد مايشاء ويحقق مايريد[2] :

عتبت ومـا لـي مـن معتب ... علـى زمـن حـول قلـب

انلصق بـالـدهر مـا نجتوي ... ونختص نحـن بمـا نجتبـي

كـأن الـذي جـاء بالمخبثات ... غـير الـذي جـاء بـالطيب

ومـا الـدهـر الا أخو حيدة ... مطـل علـى شـرفـ يـرتبي

يسجـل معـركـة الكـائنات ... مثـل المسجـل فى مـكتـب

فمـا لـلـزمـان وكفـي اذا ... قبضت علـى حمـة العقـرب

ومـــا لليـــالـــي ومغـــرورة تجشمنـــــي خطـــر المـــركـــب
نبا بي مـــن قبـــل نـــاب الزمان ومـــن قبـــل مخلبـــه مخلبـــي
دع الـــدهر يـــذهب على رسله وسر انت وحـــدك فـــي مذهب
ولا تحتفـــــــل بكتـــابـــاتـــه أرد انـــت ماتشتهـــي يكتـــب

* * *

اری الدهر مغلوبا ضعيفا وغالبا فـــلا تعتبن لايسمع الدهر عاتبا

وللزمان نظام دقيق يفي بما يعد ، ومن الجور ان نسقط عليه مآسينا وخيباتنا ، ان اردنا أن نصاحبه بقـــاءاً وان نخلد انفسنا فيه ، واذا طال العمر ساده الضجر ، والتنازع لايدعنا نمكث على الارض ســـوى فترة زمنيـــة محددة[٣] :

زمـــــــــان وفى بميعـــــــاده فظلمـــاً يقـــال ليال غـــــدر
كمـــا يقـــرع الجـــرس للنـــاشئين تـــأتي الـــى النـــاس منـــه النـــذر
ولكـــن يـــريـــد الفتى أن يدوم ولـــو دام ســـاد عليه الضجـــر
ويـــأبى التنازع طـــول البقـــاء وتـــأبـــاه بقيا نفوســـ أخـــــر

ويرى ، في بعض قصائده ، الجانب المشرق من الدهر ، فهو راويـــة لاشعاره التي تهفو لجرسها اسماع الدنى ، وترعاه عين الزمان ، ولكنه لايسلمه قياده ويبقى يتبع النهج الذي اختطه لنفسه[٤] :

كذبوا فملء فم الزمان قصائدي أبدا تجـــوب مشارقاً ومغاربـــا

* * *

واذ أنت ترعـــاك عين الـــزمان ويهفو لجرســـك سمع الـــدنى

* * *

لست الـــذي يعطي الزمان قياده ويروح عن نهـــج تنهـــج ناكبـــا

ويعود باشعاره الى العهود المزدهرة مـــن الماضي ، ويرفض الماضي المطلق الذي يحبو فى أجوائه اللاوقتيون المنسحبون الى وراء ، المحاصرون به في الحاضر والمستقبل[٥] :

من ذا يـــرد لنا التاريخ ممتلئاً عـــزاً وان لم نرد ردا ومرتجعا

* * *

لابـد هاشم والزمان كما ترى   يجري مع الصفو الزلال شوائبا
والحالمون سيفقهون اذا انجلت   هـذى الطيوف خوادعاً وكواذبا
لابـد عـائـدة الـى عشـاقها   تلك العهـود وان حسبن ذواهبا

ولكن الماضي الذي يحمل ، مع تجاربه الخيرة ، أوزاراً وآثاماً يقابله مستقبل بسام يتطلع بإعجاب الى جموع تتقحمه محطمة السدود ومجتازة العقبات، وينحصر الحاضر ـ الحلم مرتجا بين الماضي والمستقبل ، الا ان ذلك الحاضر قد يلغي البعدين الزمنيين الاخرين ، ان دعا الى ذلك امر يتطلب معالجة فورية آنية(٦) :

فرمى لك الماضي الاليم بوزره   ورنـا لـك المستقبل البسـام
والحاضر المـرتج بينهما شـجاً   وتطلعـاً تهفـو بـه الاحـلام

* * *

قالوا غد فوجدت اليوم يفضله   والصبر قالوا وكان الشهم منجزعا

وللذكريات فى شعر الجواهري مكانة كبرى يوليها اهتماما ولايود ان تفلت منه فيطويها النسيان ، تسع له خياله وتملأ آفاقه وتجهزه بالاسى والذعر والقلق وتفعم ليله وحشة وتفردا ... الـخ(٧) :

يـاذكريـات تحشـدي فـرقا   تسع الخيال وتمـلأ الافقـا
وتـأهبي زمـراً تجهـزنـي   محض الأسى والـذعـر والقلقا
هزي الـرتاج علـي أحكمـه   وتقحمي الباب الـذي انغلقا
الليـل صبي فى قـرارتـه   مـن وحشـة مـا يفزع الغسقا
والـريـح خليهـا اذا صفرت   فى البيت تـوسـع من به فرقا
خلي الصغار من الاسى فزعـا   يتساءلون مـن الذي طـرقـا
ودعي الكبار يـرون مـدخنة   فيـه ولا يجـدون محترقـا
والصبـح رديـه لمبسـمه   شـرقـاً وبـالعبرات مختنقـا
ثـم اطلعي مـن كـل زاوية   ذاك الجبين ووجهـه الطلقـا
حتى اذا انتصف الاصيل بـه   فتكـوري فى صلبه شفقـا
ثـم اسكبي نضح الدماء بـه   ثـم ابعثـي من نشرها عبقـا
وتمزقـي قطعـاً مضـرجـة   تمتصـ مـن نضحاتـه علقـا

فكأن فيها الصلب منغلقاً ... بجراحه والصدر منخرقا
ياذكريات تجسدي بدناً ... غض الصبا وتعطري خلقا
عريان لاختلا ولا وغرا ... ضحيان لاصلفاً ولا ملقا
لم تتركي من كل شاردة ... نمطاً ولا من نأمة نسقا
ثم ابدهيني كل آونة ... منها بما يستامني رهقا
ياذكريات كلها حرق ... تطأ الفؤاد وتلهب الحدقا
من لي بأطياف تراوحني ... بالهم مصطبحاً ومغتبقا

وفي هذه القصيدة ، كاملة ، طقوس واجواء وتميز من القصائد الاخرى بتماسكها ووحدة مضمونها ، يمكن ان تصبح نموذجا شعريا يستغله الشاعر ويوشحه ، ان اراد، بمقاطع ، ذات تشكيلات متنوعة ، تعود بالقارىء الى ذلك الماضي الذي تحيا ذكرياته فى مخيلته فتثيره ، عارضا اجزاء من حياة انقضت ، ومازالت تأكل بنيرانها الحاضر ، فتكون نواة لجو درامى يقترب بتطوره ونموه واختلاف مشاهده ولقطاته من الروح المسرحية والتكامل الادبي ، مادام الشاعر يسترجع الذكريات ويعيش فى أحداثها ويقحم على الحاضر اجواء من الماضي الذاهب ، وان خشي من ابتعاثها ، ولكنه لا يود ان يطويها فى ذلك الماضي لانها معين لاينضب من مضامين وموضوعات وايحاءات ترفد اشعاره بعوالم لا يستمدها من الحاضر والمستقبل[٨] :

تلفت أطرافى ألم شتائتاً ... من الذكريات الذاهبات الرواجع
تحاشيتها دهراً أخاف انبعاثها ... على أنها معدودة من صنائعي
على أنها اذ يعوز الشعر رافد ... تلوح له اشباحها فى الطلائع
فمنها الذي فوق الجبين لوقعه ... يد ويد بين الحشا والاضالع
ومنها الذي يبكي ويضحك أمره ... فيفتر ثغر عن جفون دوامع
ومنها الذي تدنو فتبعد نزعاً ... شواخصه مثل السراب المخادع
ومنها الذي لا أنت عنه اذا دنا ... براضٍ ولا منه بعيدا بجازع

ولعل احياء تلك الذكريات ورعايتها والحنو عليها نوع من تعزية يقدمها

شاعر لنفسه حين يطوي الدهر شبابــه شيئا فشيئاً ويــود ان يصمــد زاءه ون يتحداه[9] :

هــوت عذبات العمر الاصوامداً علــى لفح اعصار فهن رطــاب
وجف وريــق منه الا نــديـة تعاصت علــى الايام فهي شباب

ويتطلع الى اروع مايمكن ان يقدمه الفكر من عمق وبعد ومدى ليعوض عن شباب ذاهب لم يتعهده الشاعر بالبقاء والعناية بل ساعد عاجله علــى تعجيله وكأنه في سباق ومزاحمة مع الزمن[10] :

إني وجدت وللشباب حــدوده أشهى بنات الفكر أقصاها مــدى

* * *

وأرى الصبا عجلا يمــر وانني ساعدت عــاجله علــى تعجيلــه

* * *

وان الــزمــان مشى مسرعــا يــزاحــم موكبــه مــوكبــي

والزمان عدو لدود تلبس خطوبه الشاعر رداء لا يلائمه فيضيق ذرعا به وبأهليه وحقدهم وتقاليدهم البالية ، ولايعرف للسعادة معنى ، أكلــت الهموم قلبه واستنزفت جهده ، وجارت عليه الليالي فى تقلبها وأضعفه طول تفكيره فى شرورها وكأنه كرة تتقاذفها الاهواء وتلهو به على مر الزمان[11] :

قــل صبري على زمان ألــــد وخطوب ألبستني غــير بــردى
وتقــاليــد لا تطــاق ونــاس لايجيدون غير لــؤم وحقــــد
تائـــه فى حياتــه ليــس يدري اي بــاب الى الســرور يؤدي
صدمات الزمان تبقي خدوشــاً في أصــم من الجلاميد صلــد
أكلــت قلبي الهموم وهـــــدت كل حولي واستنزفت كل جهدي

* * *

جــارت على الليالــي فى تقلبها وأوهنت جلدي من فرط تقليبي
عودا وبدءاً علــى شــر تعاوده كأنني كــرة للعب تلهــو بــي

* * *

أجـــد وأعلـم علـم اليقـين بأني مـن الـدهـر في ملـعب
وان الحيـاة حصيـد الممـات وان الشروق اخـــوالمغـرب

ويشكو الليالي التي لاتعي ويعاتب الدهر الذي لايسمع ويستعطفه ليرق له والا فليأخذ الحياة التي سئمها فهي السم الزعاف المذوب في الصميم[١٢]:

أعاتب فيك الدهر لو كان يسمع واشكو الليالي لو لشكواي تسمع
أكل زمـاني فيك هم ولوعـة وكل نصيبي منـك قلب مروع
لعل زماناً ضيعتني صـروفـه يـرق فيرعى فيه قـدر مضيع
اليك زماني خـذ حياة سئمتها هي السم في ذوب الحشاشة ينقع

ولم يفضل الجانب السعيد من الزمن على الجانب الشقي ، ففي كليهما ما ينغص عليه هناء شرابه[١٣] :

حلبت كـلا شطري زماني تمعناً فلم احمدالشطرالذيفضل الشطرا
شربت على الحالين بؤس ونعمة وكابدت فيالحالينمانغص السكرا

وهو الخبير يعرف نعم الحياة ويخشى ان يغمره ظلام الموت ونفسه عامرة بالآمال والاهواء ولكنه في محنة هذه الـدنيا لايجد الخلاص فيلجأ منها اليها[١٤] :

فلست أجهل ما في العيش من نعم أنـا الخبير بـأشيـاء وأشيـاء
ولا أحب ظـلام القبر يغمرني أنـا المشـع بامـال واهـواء
وانما أنـا والـدنيـا ومحنتها كطالب المـاء لمـا غصّ بالمـاء

ولكن الزمان لايرحم ، عاتان استهدف من السماء نجومها كانت مداس خيوله ، فكيف يصارعه الشاعر ويحاوره ويداريه ، وما الذي ادخره لاحداثه ؛ وماذا يملك ازاءه غير الشعر[١٥] :

وتعلمن ان الزمان اذا انتحـى شهب السما كانت مداس خيوله

* * *

ذخرت لاحداثالـزمان يراعـا يجيد نضالا دونها وقـراعـا
وأعـددتـه للطارئات ذخـيرة يزيح عـن الشـر الكمين قناعا

ومـا في يدي الافـؤادي أنرته ليلقي على سود الخطوب شعاعا
وهل أنا الا كالمؤدي رسـالـة رأى كتمها حيفـاً بها فأذاعـا

* * *

هو الدهر قارعه يصاحبك صفوه فما صاحب الايـام الا المقارع

ولأنه مغرم بالحزن والآهات والاسى حتى وان وافته الامال الغر الحسان ورعته العناية بألطافها ، تمده بالرفاه والامان ، يعود فينصف الزمن ، ويبرئه من محنته ، ففيه يرى الطبيعة ساحرة والنيرين متألقين بصباح ومساء ويجد في الفرقدين أخيلة واجواء (١٦) :

مـاذا تـريـد مـن الـزمـان ومـن الـرغـائب والامـاني
أوكلمـا شـارفـت مـن آمـالك الغـر الحسـان
ورعتـك الطـاف العنـايـة بـالرفـاه وبـالامـان
اغـرمـت بـالاهـات اغـرام الحنيفـة بـالاذان
مـاذا تريـد مـن الـزمـان أعطيـت مـا لم يعط ثـانـي
أعطيـت مـن لطف الطبيعـة ان يشـع النـيران
صبحـاً وامسـاءاً وان يـوحـي اليـك الفـرقـدان

ويقيم علاقة عتاب مع نفسه ويترك الدهر جانبا بعد ان تقحمه واعتلاه وكان في صميم عبابه موجة متصاعدة ، فهو وصروف الدهر كالسيف والقراب، ولكنه دوما يتمسك بالدنيا ولا يسلوها حتى وان ارته اكثر الجوانب وحشة وظلمة(١٧) :

ومالك من عتب على الدهر انما عليك لمـا هـونت منه عتـاب
تقحمته حتى كأنك فـوقـه وانـك اذ طـم العباب عبـاب
ورحت سماحـاً تحضنين صروفه كما احتضن السيف الجراز قراب

* * *

يمينـاً لست للـدنيـا بقالـي وان كـدرت ولا عنها بسالـي

والشاعر ، رغم الماضي والذكريات ، يشخص الى أمام ويتطلع الـى المستقبل ويدعو الى تجاوز الماضي المطلق وتطوير الحاضر ، والعمل والنضال في سبيل انسانية متجددة مـع الايـام ، ولكـن الطريـق موعر صعـب

تكتنفه المخاوف وتسد المنافذ اليه قوى تتمثل بالمنسحبين الى وراء ، يستثمرون الماضي قتلاً للحاضر والمستقبل[18] :

لأوعدكم من غد صادقاً ويسرف في الوعد من يكذب
أمامكم موعر ملغم بشتى المخاوف مستصعب
يسد مداخله أرقم وتحمي مسالكه أذؤب
وسوف يبين اذا ما انجلى غد من يجد ومن يلعب
وسوف يدور ساعاتكم بما لايسركم عقرب

وتحار الافهام بذلك الغد المجهول الذي يخبئه المستقبل فلا تدري ما يفصح عنه وما يحمل من احداث ولكن الظلام المقيم لابد ان يحل مكانه ، كنقيض ، نور ساطع فيسير الوقت وفق الابعاد الزمنية الثلاثة بنسق تطوري طبيعي ، والتضحية اولى خطوات طريق ذلك المستقبل ، وليس من السهل ان تترك الماضي يندثر فى الزمن السحيق ، ونقبل نحو فجر صادق ات بلا ريب ، دون ان يكون الثمن فادحا ، والضحايا كثيرة ، فالحياة جريئة سريعة لاتغلب ، ترمي وراءها بأثقال السنين وتحطم من لايستطيع بها لحاقا[19] :

يوم الشهيد لسوف تعقب فى غد يوما تحار بكنهه الافهام
ولسوف نجهل ما يقل بصلبه قدر وما تتمخض الايام
ولسوف يصبح مانحار بكنهه ان حان حين واستتم تمام
أمراً كما قال البديهة قائل النور نور والظلام ظلام

* * *

وتلمسوا أفقا تلبد غيمه وترقبوا
ينهض لكم شبح بمسفوح الدماء مخضب
غض الصبا وكأنه مما تغبر أشيب
ذو عارضين فمؤنس جذل وآخر مرعب
يرنو الى أمس فيعبس عنده ويقطب
ويلوح فجر غد فيركض نحوه ويرحب
ان الحياة سريعة وجريئة لا تغلب

تـــرمـــي بأثقـــال السـنين وراءهـــا وتعقـــــب
وتدوســــ مـــــــــــن لا يستطيـع لحـــاقها وتـــؤدب

ولكن الشاعر يكل الى الغيب مايأتي به القدر ، ويدعو الاجيال الجديدة ان تتحرك فى حاضرها بعزم وان تستوحي مساوىء الماضي لتمد من جماجمها جسرا الى أمل يلوح في دروب المستقبل الطويل[٢٠] :

كلوا الى الغيب مايأتي به القدر — واستقبلوا يومكم بالعزموابتدروا
تذكروا امس واستوحوا مساوئه — فقـد تكون لكـم فى طيه عبر
مدوا جماجمكم جسرا الى أمـل — تحاولونوشقوا الدرب واختصروا

* * *

سيقول عهـد مقبل عـن حاضر — نشوى عليه لعنت عهـداً بائدا
قل للشبيبة حين يعصف عاصف — الا يظلوا كالنسيم رواكـدا
نشء يقوم من زمـان فاسـد — لاكـالزمان يكون خلقاً فاسـدا

والزمنية فى شعر الجواهري سياسة واصلاح ورفض للماضي المطلق وتجاوز للحاضر المتخلف ، وبناء لمستقبل أفضل ولاتتخذ فى غير هذا وذاك مسارا فكريا فلسفيا ، ولكن الشاعر يطيل التأمل في ألغاز هذه الحياة ويرى الدنيا تجري كما تشاء ويتبعها الانسان بتعليل وتفسير ، لاجدوى فيهما ، وقد أعيا المفكرين جهلهم بما يحمله الغد ، وتوالت جهود مضنية فى حل عقد الخليقة فزادتها تعقيدا وابهاما ، فكيف نفهم ان تنتهي حياة امرىء فى ريعان الشباب واخر يمتد به العمر طويلا ، ولم يغتال الموت الصبا ، حينا ، ويبقي الشيخوخة والهرم[٢١] :

تجري على رسلها الدنيا ويتبعها — رأي بتعليل مجراهـا ومعتقـد
أعيـا الفلاسفة الاحـرار جهلهم — مـاذا يخبي لهم فى دفتيه غـد
طال التمحل واعتاصت حـلولهم — ولاتزال علـى ما كـانت العقد
ليت الحياة وليت الموت مرحمـة — فلا الشباب ابن عشرين ولا لبد
ولا الفتاة بريعان الصبا قصفت — ولا العجوز على الكفين تعتمـد

وتتفرق الجماعات وتزول الاجيال وتأتي مواكب تتغير على مدى الزمن وتتساوى نهايات الحياة وبداياتها[٢٢] :

يقولــون ان يــداً فى الغيــوب ... تدير على الارض حكم الســما
ولمــا يــزل مثــل ســائــر ... علــى الناس يجري بأيدي ســبا
وكنــا انــاســا كمــاء السماء ... تخبط طوراً وطــوراً صفــا
نجيء الحيــاة على رســلها ... نهايــاتهــا عنــدنــا كالبــدى

ويطربه وقع زحف السنين بسر الحياة وتقادم الايام ، ويلتمع بريق الالم في ظلمات دياجي الدهور ، وتلهبه الرياح العاصفة فيمل الركود ويرى فى الموت نبع الحياة الجميل ، بدونه لاتتجدد ، ولكــن ان تخضبه الايام بدم ، وتفصح عيناه عن سر العدم ، بما يتوهج كأس الوجود من نور ، فلا حياة بلا موت ولامعنى لاحدهما دون الاخر ، ويلذ الشاعر عناق ظلال الحياة التي اختلط فيها السرور بالهم[٢٣] :

سيطربني وقــع زحــف السنين ... بســر الحيــاة وعمــق العــدم
وتفتــح عيني ســود الدياجــي ... ينــور منها بــريــق الالــم
ستلهبني عــاصفات الــريــاح ... فقــد مــل سمعي وئيد النسم
ارى المــوت نبع الحياة الجميل ... اذا خضبته الليــالــي بــدم
وعن وهج الكأس كأس الوجود ... تتــرجم عينــاى ســر العــدم
ألــذ عنــاق ظــلال الحيــاة ... تخــالط فيهــا ســرور بــهم

ويترك حينا الدهر والزمن وما اليهما وينسى الفواجع والكوارث فى خصر وكأس[٢٤] :

مــاشــاء فليكتــب علــيّ الــدهــر انــي لا أبــالــي
اذ كــان خصــرك فى اليمين وكــان كــأسـي فى شــمالــي

ويدعو « أنيتا » أن تصيخ السمع الى وقع رائحين وغاد وان تتملى من هذا الوجود الذي لايكرر نفسه وان تنصت الى صدى يردده قطار يتهادى فى السفوح والوهاد لتجد فيه بديلا عــن صدى الزمن وترى الدنيا تتجدد وترحل بالاماني ، هي حلم رائع وطيف لذيذ ، يعانق اليوم غده ، وتلــوذ

الليالي بالليالي ، فهازم فيها ومنهزم بمعركة هذا الوجود ، وتلتقي شفتان ، أبدع في صنعهما الزمان ، وذوب فيهما الدهر من اللطف والوحشة روعة وحسناً ويحث « أنيتا » أن تهب وتمنح ، فالليالي متشابهات ، تواليها مثل خواليها ، تنقل ساعاتها كالظلال للاخرين فيستحيل الحاضر مع الزمن ، وبعد فترة قريبة ، حلماً ويتراءى كالخيال المريب[٢٥] :

اســمعي وقــع رائحين وغــاد
وتملــي مــن الــوجود المعــاد
والقطـــار المجلجـل المتهــادي
فى ســـفوح منســابة ووهــاد
اســمعي اسمعي « أنيتا » صــداه
تجدي عــن صــدى الزمان بديلا
وترين الدنيــا تجـد رحيــلا
بــالأمــاني غــدوة وأصــيلا

* * *

يا حبيبــي مــال الزمــان فميلي
وأميلــي بمــوضـــع التقبيــل
ياحبيبي لــم يبــق لي مــن مــآب
مــن لبــانــات هــذه الاطيــاب
والظـــلام المــزعــزع الأطنـــاب
ومجــاجـــات عطــره المنســـاب
غير هــذا الليــل الفسيــح الرحــاب
بين جفنيـــك حـــار والاهــداب

* * *

أمس ، أمس التقت هنـا شــفتان
كــانتا مــن عجيب صنــع الزمان
ذوب الــدهر مــن مزيج الامــاني
فيهمــا كــل مــوحش ولطيـــف
وبليـــد وحــائــر وعصـــوف

* * *

سامحي سامحي ، فان الليالي
التوالي منهن مثل الخوالي
ناقلات ساعاتها كالظلال

لسوانا ونحن عما قريب
نتراءى مثل الخيال المريب

---

(١) ينظر للمؤلف : التبشير بالثورة وقيمها في الشعر العراقي المعاصر ، الشعر والثورة ، وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٧٤ .

(٢) ، (٣) ديوان الجواهري ، ج١ ، بغداد ١٩٤٩ ، ص ٩٦ ، ١٠٠ ، ج٢ ، ص ١٠٣ ، ١٣٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ، ٢٧، ٢٨ ، وديوان الجواهري ، ج٣، طبعة وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٧٤ ، ص ٢٠٣ .

(٥) الديوان ، ج٢ ص ١٣ ، ٣٠ .

(٦) ـ (٨) الديوان ، طبعة الاعلام ، ج٣ ، ص ١٥٧ ، ١٨٩ ، ٣٠١ ، ٢٣ .

(٩) ديوان خلجات ، بغداد ١٩٧٢ ، ص ١١ .

(١٠) الديوان ، ج٢ ، ص ٩١ ، ج١ ، ص ٦٥، ٩٩ .

(١١) الديوان ، طبعة الاعلام ، ج٢ ، ص ١٠٧ ، ٢٠٧ ، والديوان ، ج١ ، ص ٩٧ .

(١٢) ـ (١٦) الديوان ، طبعة الاعلام ، ج١ ، ص ١١١ ، ١١٢ ، ج٢ ، ص ٨٦ ، ٩١ ، ١٨١ ، ٣٢١ ، ج١ ، ص ١٠١ ، ج٢ ، ص ٣٢٧ .

(١٧) ديوان خلجات ، ص ١٤ ، ١٥ ، والديوان ، ج٢ ، ص ٦٥ .

(١٨) الديوان ، ج٢ ، ص ١٦٧ .

(١٩) الديوان ، طبعة الاعلام ، ج١ ، ص ١٧٠ .

(٢٠) ـ (٢٥) الديوان ، طبعة الاعلام ، ج٢ ، ص ٣١٥ ، ج٣ ، ص ١٩٩ ، ج٢ ، ص ٣٥١ ، ج٣ ، ٢١٣ ، ٣٩٠ ، ٢٣٠ ، ٣٥٦ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠، ٢٧٨ .

الزمن الجديد

وأسهم شعراء النصف الاول من القرن العشرين فى الكشف عن مساوىء افتقار انسان العصور السائبة الى مفهوم واضح للزمن ، يصدر عنه فى خط تطوره الفكري وابداعه ومواكبته للحياة وتبادل المواقع بين الاموات والاحياء ، ولم يتمثل وعيهم المحدد لذلك الا في تحويل المضامين الشعرية من اطرها الفردية الضيقة الى عالم الاصلاح والمجتمع ، فبدأ الشاعر يتحدث عن الاوطان والشعوب والظلم والعدل والرجل والمرأة ... الخ ، ويحس بصورة غير مباشرة بدوره الحقيقي ، بانسانيته التي انهكتها عصور القهر ، وبمضامينه التي حطمتها القوالب الجاهزة .

وتطلع شعراء ما بعد ذلك الرعيل الى هوة العدم واللازمنية التي وقعت فى متاهاتها الاجيال السابقة ، وارادة الكشف المعطلة ، وروح المغامرة والريادة الذاوية ، وضياع حق الحياة المهدور فى اقبية الظلم والقسوة والانحسار عن الزمن السائر الدائب فى دورانه ، وصدعهم احساسهم بمأساة الجموع الماضية بحسراتها اللامتناهية الى صفحات من التاريخ لم تحفظ كثيراً من سمات كفاحها ضد اغتيال تطلعاتها الخيرة . ولم يحل انبهارهم بفداحة ماحدث ان يثأروا من اسبابه ويبتعدوا عن اجوائه ويستفيدوا من اخطائه عبر الحاضر والمستقبل خوفا من وقوعه وارتجاعه ، وبدأوا يبحثون عن زمن جديد وعن قوالب في التعبير تستطيع ان تحتويه ، وحدث الانفصال بين واقع مثقل بتركة العصور الذاهبة ، يكاد يرتد عنه أشد المتفائلين يأسا ، وبين مستقبل افضل يوحي لاكثر المتشائمين تطرفا بأن الامل مازال يراود الافئدة والعقول ، وبدا الحاضر متأرجحا لايعرف كيف يستقر بين البعدين السابق واللاحق ، واخذ الحلم دوره فى التعويض عن هذا الواقع المضطرب ، وظهر فى تنافر زمنية الشاعر وواقع زمنية مجتمعه ومعاصريه ، وتمثل فى انكفاء ذاتي وانطوائية بائسة ورومانسية مغرية وقع فى أحابيلها شعراء ،

وتخلص من شراكها آخرون ، وحاولوا ان يوفقوا بين الحلم والواقع وبين زمنية سائبة وثانية محددة تطمح فى اسس من الوعي واضحة •

وكان اول مافعله شعراؤنا المحدثون ، فىالبحث عن زمنية جديدة ، تطلعهم الى اساليب لاتخضع للقوالب الجاهزة المستهلكة ولم تنحصر القضية في شكلية التفعيلات والقوافي وتغييرها وتحوير مواقعها وتفتيت مسافاتها الهندسية الثابتة ، وفك الطوق عن الموضوعات الشعرية التي كانت محددة بالاغراض المعروفة ، ولكنها كانت اعمق بكثير ، تمثلت في مواكبة العصر ومتطلباته وخلق زمنية جديدة تحيل خيبة ضياع العهود السابقة الى انتصار الوجود المعاصر ليكون منطلقا ثابتا للمستقبل ، واصبح للدور التاريخي الذي لعبه الشعراء الرواد اثر كبير فى الحياة الفكرية العربية ، ووضعوا امام القارىء طريقين : ان يضيع مع من ضاع فى العصور الفانية بلا وجود ولا فكر ولا زمنية ، او ان يسير الى المستقبل مخلفا ظلمات تلك العصور دون ان تتسرب الى انوار تطلعات الانسان الحديث الذي يريد ان يحيا بهاء الحاضر وان يعيش ايامه واعوامه والا يستعير من الماضين مظاهر واقعه وانسانيته وان يفكر بعقله ويحس بقلبه وينظر بعينيه •

ووقع الشاعر المحدث فى التجربة ، وقصدها وتعناها ، واتتابه فرح غامر ، وروح متوثبة ، فهو يحيا وجوده ويعيش حياته ، ويعبر عنها وتتلاحم مع حياة الاخرين ، مع العوالم الواسعة ، وتتكثف فى شعره ذوبا من الكلمات والابيات والقصائد ، ولغة جديدة لاعهد لنا بها ، ومضامين غير محددة بهجاء ورثاء ومديح وغزل ، ويكون الانسان بكل مواجده وهمومه وتواريخه وخيباته وسعادته وشقائه مضمونا شعريا ، ويصبح هذا العالم الكبير مدار القصيدة الحديثة ، ولم يعد الشعراء يلخصون التجارب الانسانية فى حكمة او مثل سائر او بيت فرد ، واخذ المضمون الشعري يكتشف اهميته بدراميته وتفصيلاته الدقيقة للحدث الذي يستطيع القارىء ان يحياه ، بجو موحد ، يطلع منه برؤيا جديدة ويضيف الى حصيلته شيئا مغايرا او يحرك فيه بواعث

التأمل والتفكير والفهم والاستيعاب ، وتسطع فى عالمنا الادبي انوار غير معهودة ، لايستطيع ان يحجبها اعداء الانسانية والحياة ، فيحاربوا ، الادب الجديد بعنف ، مرتدين مسوح الحفاظ عليه ، ويعيقوا تطوره ، مدعين الحرص على بقائه ، وتتخذ اشعارنا طريقا الى العالمية ، مما يضيع عليهم احلال الانحسار مكان الانفتاح ، ويزعزع المواقع الرثة التي ينطلقون منها ويوهمون انفسهم بمتانة قوائمها •

وفى بحث الشاعرالمحدث الدائب عن الزمن الجديد ، يكتشف نفسه ، ويستبطن ذاته ، ويعرف الا قيمة له مالم يكن جزءا نافعا متطورا من هذا العالم الكبير ، ويحتفظ بسمات متميزة وفردية واضحة وفكر متوقد خاص ، ويندمج الجزء بالكل ، والكل بالجزء ، ولايفقد احدهما خصائصه ومقوماته ، ومع اكتشافه لذاته ، يكتشف الله والانسان ، يدرك معنى الحرية والغضب المقيد ، مدى السلم والدمار ، والحضارة والعدم ، والاسطورة والعلم ، وتصبح اكتشافاته ادوات لشعره ومضامين لقصائده وقواعد لوجوده ، وتندمج الاجزاء لتشكل الصورة والاطار ، الاصل والظل ، وتظهر اولى بوادر الروح التكاملية في النص الادبي ، وتقطع شوطا في القصة ، وخطوات في الشعر ، وتبدأ طريق طويلة فى خلق الاعمال الادبية الدرامية المتطورة المتغيرة باشكال متنوعة مع الزمن •

وينبثق فكر جديد ، وزمن جديد ، وشعر جديد • ومازلنا في اول الطريق •

السياب والزمن

يبدو بدر شاكر السياب متناقضا فى مفهومه للوقت وتحديده للزمنية ، فلا هو محاصر بالماضي احياءاً له او افتخارا به او نبشا بين اساطيره وحكاياه أوايماناً بألا جديد فى الشموس التي أشرقت بعده، ولاهو شاعر مستقبلي يوجه طاقاته لخلق عالم جديد ، تهيأ لكل المبدعين ان يكونوا بناة له ، الا انه حاول ان يعبر عن تكثيف فكري رائع ، يدرك معنى المعاصرة ويسهم في روح التحول والتغيير ، وبحث عن زمنية جديدة ، اراد ان يضع لها حدودا وابعادا ، فهل تمكن شعره ان يظهرها بوضوح ؟ وهل استطاعت جملته الشعرية ان تحتويها ؟ ام انه كان مضطربا بين ماضٍ مؤلم ، وحاضر قلق ، ومستقبل مجهول ، على الصعيد الشخصي والعام ؟

تفتقد بعض قصائد السياب وضوح فكرة اللحظة الحاضرة والانفصال عن الحدين الزمنيين الآخرين ، والشاعر لايدعو ان يتوقف الزمن الا حين يحس ان الاوقات المقبلة القريبة تحمل معها العدم المميت[1] :

هذا هو اليوم الاخير فليته دون انتهاء !
ليت الكواكب لاتسير
والساعة العجلى تنام على الزمان فلا تفيق

فليس استغراق الحاضر لبعدي الماضي والمقبل أمرا واقعاً فى انتاجه الشعري . والحلم سمة ظاهرة يمليها هروب من واقع ، والكشف عن الغيب خرافة ، والرؤيا الجديدة قلقة ، والشاعر يستغيث ولا يكل ، والتشبث « بجيكور » قرينته الوديعة ، والحنين الدائم اليها ، يبعد عنه هوس الاغتراب أو ينقذه من شمولية لا قدرة له عليها[2] :

بالأمس حين مررت بالمقهى سمعتك ياعراق
وكنت دورة اسطوانة

هي دورة الأفلاك من عمري تكور لي زمانه
فى لحظتين من الزمان وان تكن فقدت مكانه

وهذا هو التكثيف الزمني ولكن نضوب النفس يصيب الشاعر بمرارة الذكرى التي يصاحبها يأس قاتل[٣] :

أفليس ذاك سوى هباء
حلم ودورة اسطوانه
ان كان هذا كل مايبقى فأين هو العزاء ؟

ويتساءل بحرقة[٤] :

ففيم غرور هذا الهالك الانسان ، هذا الحاضر
المشدود بالأجل ؟
أعمر ألف عام ، ليته شهد الخلائق وهي تعبر شرفة الأزل ؟

ففي العودة الى الماضي ظل من عزاء واليه يفيء الشاعر : « كأن بابل القديمة ا لمسورة • تعود من جديد »[٥] ، ولكنها لن تعود[٦] :

وطال انتظاري كأن الزمان
تلاشى فلم يبق الا انتظار

والحسرات التي تنسحب الى الماضي لاتجدي نفعاً ولا تبعد بؤسا ولا تزيل تعاسة[٧] :

طفولتي ، صباي ، أين ••• أين كل ذاك ؟
اين حياة لايحد من طريقها الطويل سور
كشر عــن بوابة كأعين الشباك
تفضي الى القبور ؟

* * *

أهكذا السنون تذهب
أهكذا الحياة تنضب ؟

أحس أنني أذوب ، أتعب ،

أموت كالشجر

ويحل التمني مكان الخيبة ويود لو يسترجع الماضي[٨] :

لو استرجعت قبضتاك السنين

لو استرجعت ليلة ذاهبة

*　　*　　*

هيهات ان يقف الزمان ، تمر حتى باللحود

خطى الزمان وبالحجار

رحل النهار ولن يعود

ونراه فى كثير من قصائده يرجع الى المراحل الاولى من حياته ، هروباً من واقعه وتخلصا من مشكلاته وارتباكه واطمئناناً الى براءة وحبور عهد طفولي رائع بعيد عن التعقيد ، فهو سومري معاصر ، يبدو له الماضي عالما نورانياً ذهبياً[٩] ، ولكن على صعيد الحلم الشخصي ، يتخلص من تأثيراته اذا تحدث عن الجموع ، فلا يغرق الناس معه فى طوفان الرومانسية الضاربة في تهويمات الأخيلة الفردية الخاصة ، وحين يقرن نفسه بقضية شعبه ، تتلاشى الاحلام ويعدو به الماضي عبر الحاضر نحو المستقبل المنشود ، ولكنه كالآخرين ميت بلا تشبث بذلك الماضي ، فهو يريد ، على طريقته الخاصة رغم كل شيء ، لهذا الماضي احياءاً[١٠] :

لأعرف أنها أرضي

لأعرف أنها بعضي

لأعرف أنها ماضيّ لا احياه لولاها

واني ميت لولاه أمشي بين موتاها

فلا عجب ان يبحث الناس عن ماض ، دون كلل ، وتكون مقومات حاضرهم ومستقبلهم مرهونة بأمجاد ذلك الماضي وذكرياته الحقيقية والمتوهمة[١١] . ولم يتحدث السياب عن الاموات الاحياء الذين لم يعرفوا

المقبل الا حين يستغرقهم مروراً فيصبح ماضياً فكأنهم محطات زمنية ، ولكنه يرسم بدقة معالم الانسان الذي عاش فى الاحقاب الماضية بفكره وما زال يقتعد شموس العصر الحاضر(١٢) :

ذلك الكائـــن الخرافى فى جيكـــور هومير شعبه المكـــدود
جـــالس القرفصاء في شمس آذار وعيناه فى بلاط الـــرشيد
يمضغ التبغ والتواريخ والاحلام بالشدق والخيال الـــوئيد
ماتزال البسوس محمومة الخيل لـــديه ومـــا خبا من يزيـــد
نـــار عينين القتاها علـــى الشمر ظلالا مـــذبحات الـــوريد
كلما لز شمره الخيل او عـــرى ابو زيـــده التحام الجنـــود
شد راحاً وأطلـــق المغزل الدوار يـــدحوه للمدار الجديـــد

ويأسى الشاعر لواقعه وحياته وتضطرب أفكاره بين الاراء الـــوافدة والمتوارثة ، ويشجب حضارة القرن العشرين ويستريح ، فالمجتمعات الحديثة أوقفت عجلة الزمن وتلاشت فيها أبعاده الثلاثة ، وهي بتطلعها الى بعد رابع قد قتلت الانسان واقامت من الالة معبودا جديدا(١٣) :

حـــاضر غير حـــاضر فيـــه للماضي فناء وللغـــد الموعـــود
لاعليك الســـلام ياعصر تعبان بن عيسى وهنت بين العهود
أنت أيتمت كل روح مـــن الماضي وسودت آلة من حـــديد

ويقول أيضا(١٤) :

أوما ترى المتحضرين
المزدهين من الحديد بما يطير وما يذيع
مهما ادنأت فلن أسف كما اسفوا ، لي شفيع
وهم المجاعة والحرائق والمذابح والنواح

ولدعوته الى الماضي ، احياناً ، مبررات ، خيبة أمله فى الحضارة الحديثة، القائمة على الحروب والدمار والاستغلال ، رغم التقدم الفكري والتكنولوجي الهائل الذي يجب ان يسخر من اجل قضية الانسان ، والمستقبل ، عنده ، محضـــ افتراء ماعـــدا أعيناً ترقـــب : « فنومنا بـــراعـــم انتباه ...

وموتنا يخبىء الحياة »[١٥] ، والانسان لايطمئن الى المجهول الا اذا كان مغامراً، والماضي واضح والمستقبل غائم والشاعر يلجأ فى بعض الاوقات الى طـرق يمارسها السحرة : « أنا ايها الطاغوت مقتحم الرتاج علـى الغيوب»[١٦] ، وللماضي شرور ومساوىء أيضا ، فلا مناص من التبشير بالمستقبل والموت من اجل المستقبل[١٧] :

مت كي يؤكل الخبز باسمي ، لكي يزرعوني مع الموسم
كم حياة سأحيا ، ففي كل حفرة
صرت مستقبلا ، صرت بذرة

* * *

فى كل قطرة من المطر
حمراء او صفراء من أجنة الزهر
وكل دمعة من الجياع والعراة
وكل قطرة تراق من دم العبيد
فهي ابتسام فى انتظار مبسم جديد
او حلمة توردت على فم الوليد
من عالم الغد الفتى ، واهب الحياة

ويطول الانتظار ، فالزمن خرافة « فكأن امس غد يلوح وليس بينهما مكان »[١٨] ، وابعاده افتعلها الانسان ليحسب عمره جزءاً منها ، فلا بد لعقله المحدود ان يقسم رحلته عبر هذه الحياة الى ماض وحاضر ومستقبل والى وجود وعدم . ويدفع الارتباط بالجموع الشاعر ان يلغي هذا وذاك وان يبشر بانسان الغد الاتي ، ويطول الانتظار ، وينفذ الصبر ، وتضطرب زمنيته بتأرجح ذلك الارتباط في نفسه ، ويبدو الالتزام باحد الازمنة الثلاثة وكأنه ايمان باتجاه فكري وسياسي معين ، ويتخبط فى متاهات ، وتكتنفه ظلمات ، ويود لو تسرع عجلة الزمن[١٩] :

الخيل من سأم تحمحم وهي تضرب بالحوافر
حجر الطريق
هلم : فالحوذي يبحث عن مسافر

وتتصاعد أزمة الشاعر ، وتدور تساؤلاته المريرة[٢٠] :

جيكور .. ماذا ؟ أنمشي نحن فى الزمن
أم انه الماشي
ونحن فيه وقوف ؟
أين اوله
واين آخره ؟
هل مر أطوله
أم مر أقصره الممتد فى الشجن
أم نحن سيان ، نمشي بين احراش
كانت حياة سوانا فى الدياجير

ويحس الشاعر ان الزمن عدوه اللدود يتربص به الدوائر ، والعدم كامن فى اهابه فتثور الهواجس ولا خلاص[٢١] :

ونحن نسير ، والدنيا تسير وتقرع الابواب
فتوقظ من رؤاه القلب : ذاك عدوك الزمن
تدور رحاه .. كم ستظل تخفق ؟ ها هم الاصحاب
تراب منه تمتليء الدروب وتشرب الدمن

وبرؤيا متوحدة متوحشة يكشف عن المسألة كلها ، توقف الزمن عنده واضطربت المقاييس وسارت القيم على رأسها[٢٢] :

تختض فى ليل الخليج الصدور
في عالم لم تمشِ فيه العصور

فالعصور تحجرت ، والعقول تكلست ، والزمان ركد ، وأبعاده خرافة[٢٣] :

والزمان ارتماء بدون انتهاء
تزفر الارض عنه وتبكي السماء

* * *

وغدا ، وامس .. والف امس ـ كأنما مسح الزمان
حدود مالك فيه من ماض وآت
ثم دار ، فلا حدود
مابين ليلك والنهار ، وليس ثم سوى الوجود

ولم يستطع السياب ان يتمثل توقيتا خاصا ، وتلك احدى مآسيه ، ولكن احساسه بالزمن دفعه ان يقترب من الحدث الدرامي والحوار الحقيقي، في بعض قصائده ، كالمطولات ، وان تكون لقصائد اخرى روح مسرحيةواضحة قابلة للتطور والنماء واتخاذ اشكال متنوعة من التكامل الادبي .

---

(١) ـ (٨) ديوان بدر شاكر السياب (المجموعة الكاملة) ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٣١٨ ، ٣١٩ ، ١٧٨ ، ٤٧١ ، ٧٩ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ٥٨ ، ٢٣٠ .

(٩) يقول الدكتور طه باقر في مقدمة ملحمة جلجامش ، ص ١٠ : « فالطريف ما يروى عن السومريين انهم لم يتصوروا انفسهم حديثي عهد بالمدنية والحضارة بل عدوا انفسم ورثاء ماض بعيد مجيد ، اذ تخيلوا ذلك الماضي على هيئة عصر «ذهبي» كان السلام والوئام فيه يسودان العالم ، فلا خوف ولاحزن ولابغضاء ، وكان الخير يعم الكون .. » ، ثم يقول : « ولم تتمكن فكرة التقدم البشري من الانتشار الا في العصور الحديثة ، وبوجه خاص بعد منتصف القرن التاسع عشر ، وهناك من ابناء العصر الحالي من لايزال متعلقا بفكرة الماضي الذهبي » .

(١٠) الديوان ، ص ٤٠١ .

(١١) يقول يفيجيني فينوكوروف : « على الفنان الا يبقى خارج الماضي او في داخله . عليه ان يكون في حالة صراع ، في حالة جدل ، في حالة ارتباط مع الماضي ، في حالة استمرارية للماضي ، في حالة تفاعل ديالكتيكي مع الماضي . مع التراث . على الفنان ان يعيش حالة حب وصراع مع الماضي في آن واحد . عليه ان يرتبط بالماضي عن هذين الطريقين » ، تنظر ترجمة مصطفى عبود في جريدة الجمهورية العدد ١٧٢٩ بغداد ١٢ـ٦ـ٧٣ ، ص ٦ .

(١٢) ـ (٢٣) الديوان ، ص ٤٠٨ ، ٥٥١ ، ٤٦٤ ، ٤٤٢ ، ٤٥٩ ، ٤٨١ ، ٣٧١ ، ٥١٦ ، ١٨٨ ، ٢٣٣ ، ٥٠٣ ، ٢٦١ ، ٥٤٠ .

التجاوز في شعر البياتي

وتبدأ مسيرة الانسان فى شعر البياتي مع الاسـكندر وقبله وبعده ، لايطويه التاريخ مع صفحات الفاتح الكبير فيبحر الى زماننا هـذا ، يحمل متطلبات العصر : شهادة التطعيم والبطاقة الشخصية ، ويبصر نيرودا والهنود ومذابح الانديز ... يقاتل مع الاغريق فى مجاهل الشرق ... ويمارس السحر ويقع اسيرا ، ويتعلم كيف يأتي الينا بالنار عبر مشنقة الحلاج المصلوب بالدم ، ولعبة الخليفة التي حطمها قائد الزنج ، وكل تعاسـات الدهور واصرار الانسان الزمني المقاتل ، ولكن المحاصرين بالماضي لايرضون ان تنتقل النار الى هذا العصر ، عبر العصور ، فلتشتعل ، اذن ، باسـم الفقراء كل القارات ، ولترتفع رايات سارق النار فى كل مكان[1] :

قاتلت مع الاسكندر الاكبر فى فارس لكنني
مع المراكب ــ الطيور ابحرت الى زماننا هذا : معي
شهادة التطعيم والبطاقة الشخصية .
الانهار كانت ترتدي أكفانها
رأيت « نيرودا » مع الهنود فى مذابح « الانديز » ، فى
مطارح القارة حيث الجوع والانجيل والمنشور فى
الشوارع العارية ــ المسالخ ــ السجون
حيث المدفع ــ الدبابة ــ البيان فى الاذاعة ــ الجريدة الصفراء
ينهي دورة الفصول
يلوي عنق الوردة
قاتلت مع الاغريق في مجاهل الشرق
وقعت ، وأنا أمارس السحر ، اسيراً ،
فتعلمت من الانهار : كيف احمل النار الى زماننا هذا

واصطاد لك الفراشة ــ الوعل ــ الغزال ــ القمر
المنجمون احتشدوا فى مدن الطفولة
الحلاج كان بقميص الــدم مصلوباً
وكان قائد « الزنج » على الفرات ينهي لعبة الخليفة
الابله ، لكن ملوك المال والبترول فى « الانديز »
حيث الجوع والانجيل والمنشور
كانوا يقتلون باسم عجل الذهب ــ الطغاة فى كل العصور
حامل القربان القى وردة فى النهر
قال اشتعلي ايتها الانهار فى القارة باسم الفقراء
حامل القربان ، قال : اشتعلي ايتها القارات

ويطوي الشاعر ذكرياته بقوة ، لامكان لها فى مستقبل حاضر ماضٍ ، ولا يعترف بالضعف البشري ازاء التاريخ ، ولايستجدي احداثه ، حلا متوهما لمعضلات الحاضر ، وقتلا لكفاح الانسان المستمر ، ويلغي دهشته بالتزييف المتوارث ويبحث عن واقع جديد وزمنية مغايرة[٢] :

... ودفنت فى اعماق ذاكرتي
فأسي وزوبعتي وأحطابي
وقبور احبابي
وفتحت ابوابي
للنور والظلمات ابوابي
والتافهون وراء حائطنا
يرنون للموتى باعجاب

ويتمرد على الماضي ويبعــد ظلاله عن حياته ويتطلع الى المستقبل ، فالامس مات ليقوم مكانه يوم وغد ، ولكن هذا الامر المتناهي ببساطته أعاق تطوراً واضاع جهداً وبدد طاقات[٣] :

وتثور احقاد السنين

فنعود ، نبحث فى بقايا الذكريات عن الحياة
الأمس مــات
الامس مات

* * *

انا روح اقوى من الموت تنزو
فى دمي لهفة العصور العتاق
لهفة الموت والحياة ودنيا
من جموح ومن هوى خلاق
واساطير عالم كاد يخبو
في رماد القلوب والاحداق

وما اتعس ان يمر زمن الانسان دون ان يمثل طموحه وان يتم معه دورته وان ينجز بناءاً او يمهد طريقا او يكشف غامضا او يرود مفازات مجهولة[٤] :

اهكذا تمضي السنون ؟
ويمزق القلب العذاب ؟
ونحن من منفى الى منفى ومن باب لباب
نذوي كما تذوى الزنابق فى التراب

واية مأساة أن يتحول الانسان الى شاهدة فوق ضريح ، او حكمة عتيقة لامعنى لها ، او قافية تستجدي وزنا ، ولاتكون حياته جديرة حتى بهذه الاشارات البائسة[٥] :

عائشة عادت الى بلادها البعيدة
قصيدة فوق ضريح ، حكمة قديمة
قافية يتيمة

* * *

قلت شبابي ضاع فى المقابر
والكتب الصفراء والمحابر
من بلد لبلد مهاجر

* * *

قلت أراها فى غد ، وخانني التقدير
عقارب الساعة دارت ،
اكلت عمري بلا حساب

ويعيد ذلك التساؤل البشري المضني الذي ولد مع وعي الانسان لواقعه وتاريخه ومنذ ان حكم عليه بالموت والميلاد(٦) :

تمت فصول هذه الرواية
لن تجد الضوء ولا الحياة
فهذه الطبيعة الحسناء
قدرت الموت على البشر
واستأثرت بالشعلة الحية في تعاقب الفصول

فمن يحيل الموت الى حياة ؟ والفناء الى خلود ، ومن يبدع من العدم وجودا رائعا ؟ فلا يميته الموت ، ويحيا رغم المصير المحتم والنهاية المؤلمة ، يصنع الزمن ، يحيل الفاظ القواميس الى محراث وسيف وربيع(٧) :

من يدل العاشق الاعمى
على زهرة بستان ؟
على نبع ؟
على حانة خمار جديد ؟
وعلى عائشة بين الجواري والعبيد ؟
وعلى الفاظ قاموس بها اصنع
محراثا وسيفا وربيع
وبساط الريح من هذا الصقيع ؟

ويمضي ليل ويعقبه نهار ، ويجوب الشاعر عرض البحار ، دليله عينان خضراوان ، تطلان من عالم الموتي ، ولكن الامس الذي ضاع فى انتظار الدليل لايقتل الايمان بنجم سعيد يضيء دروب المستقبل(٨) :

والليل يمضي والنهار
وانا ، انا وحدي اجوب
عرض البحار مع الغروب
ودليل مركبي الطروب
عينان خضراوان ، آلهة الربيع
من عالم الموتى تطل عليّ ، من افق الدموع
ان ضاع امسي فى انتظارك ايها النجم السعيد
فغداً على الامواج ايماني يعود
بك ايها النجم السعيد

ومهما اختلفت النماذج ، فللبياتي ، فى شعره ، توقيت واضح ، وللزمن تأثير في ابداعه ، يؤمن بأن الفن هو الصورة الحية لعمق ذلك الزمن : « لقد حاولت ان اوفق بين مايموت وما لايموت ، بين المتناهي واللامتناهي ، بين الحاضر وتجاوز الحاضر ، وتطلب هذا مني معاناة طويلة فى البحث عن الاقنعة الفنية »(٩) ، واذا تتبعنا قصائده ، فى مراحل مختلفة مرت بها شاعريته، وعرفنا ان الاحاسيس والمشاعر لاتكون متشابهة دائما وانما هي متغيرة لعوامل كثيرة ، وادركنا ان مزاج الشاعر لايبقى على حال ، وتوقعنا ــ كما اعتدنا ــ اضطرابا فى المواقف والافكار ، لانجد ، وهنا تكمن الغرابة ، فى موقف البياتي تغييرا زمنيا جذريا او تلونا وقتيا سريعا ، فهو دوما ، وبالرغم من حالات يأس معينة ، تجاوزي يبشر بميلاد عالم جديد وقيم جديدة(١٠) ، وكأنه وجد ليوازن فى اشعاره بين الماضي والمستقبل ، وليكون ضحية لهذين البعدين ، لايشكل معهما الحاضر تعزية وسلوى(١١) :

اسطورة اعيش بين عالم يموت
وعالم يولد من جديد

ولكنه لايلغي دور الماضي تماما ، ويستمد من تجاربه ما يضيء دلالات واكتشافات جديدة : « فمهمة الشاعر والثوري لايمكن ان تتحقق بابداع واعادة خلق الواقع من خلال الحاضر فقط ، بل لابد لهما ، من ان يمتاحا آبار الماضي ، وان يكتشفا كهوفه السحريـة التي خيـم عليها الصمت ، لاضاءته واكتشاف الدلالات المتجددة فيه ، فمهمتهما ، والحالة هذه ، هي ليست عودة الى هذا الماضي :

النهر للمنبع لايعود
النهر في غربته يكتسح السدود

وانما رحلة فى النهر ، تبدأ من منابعه لكي لاتنتهي . انهما مسافران ابدا ورائدان لاصقاع انسان وشعر كل العصور ... »[١٢] ، فظلام الازمنة الضائعة تعقبها عوالم جديدة يبنيها الانسان ، والى ان تحل تلك العوالم يسعى الشاعر دون ان يقع فى وهدة الصراع بين الماضي والمستقبل فينحسر الى سلبية تتقن اغتيال التوقد الذهني وتؤمن بالا خلاص للانسان ، وان العدم اساس الوجود ، فتحطم صروحا عالية دأبت البشرية على اقامتها ، بعناء وكد ، منذ ان رحل جلجامش عبر غابة الارز الكثيفـة يبحث عـن الفردوس المفقود ، فيسقط الانسان من يديه ادوات الكفاح ، وتغيم عنده الرؤى ، ولايمثل دوره فى بناء الغد الآتي[١٣] :

موعدنا ولادة اخرى وعصر قادم جديد
يسقط عن وجهي وعن وجهك فيه الظل والقناع
وتسقط الاسوار

وليست القضية حلما او تمنيات ، ولكنها فعل وثورة : « فالثوري والشاعر يخلقان انسان وشعر المستقبل لانهما عندما يبدعان الواقع ويعيدان خلقه ، لايبدعانه او يعيدان خلقه او يغيرانه ، لكي يقعا في شركه ، ويصبحا انعكاسا له فى صـورته الجـديدة ، بـل يتخطيـاه ويتجـاوزاه الـى المستقبل »[١٤] ، وثأر المستقبل مما فات الانسان من انجازات وما عاناه من ظلم واستبداد واهدار للقيم وتبديد للطاقات[١٥] :

نبحر واقفين لمدن المستقبل السعيد
نغتصب العالم بالموت والثورة والرحيل

وحين يتلاشى الحاضر فى ظلال الماضي ولايبصر الانسان الا بعينين الفتا الظلام فترة طويلة تضيع معالم العصر الحديث ولا يبقى لروح التطور والتغيير معنى ، ويسير الزمن الى الوراء ، ويحيا التاريخ مرتين ، وفى عتمة اليأس المرير لايرمي المقاتل بسلاحه ويبقى يتطلع الى فوز آت من بعيد ، وله يحرق اوراقه القديمة(١٦) :

كتبت فوق السور مرثيتي الاخيرة
فإن مررت في غد ايتها الاميرة
بهذه الجزيرة
فلتأخذي وريقة من هذه الصفصافة
وريشة من طائر الخرافة
وقطرة من نور
الى صحارى وطني المهجور
لعل خيل الفتح ، ياأميرتي ، على ضياء الصبح
تمسح عار الجرح

ويود ان يقتحم المستقبل ويسابق الزمن الى ذلك الآتي ، بتصميم وثقة ، ولكنه يقرأ فى عيون الناس تكذيبا للقضية وشكا وخيبة(١٧) :

قال دليلي : انها مدائن الابداع
فخذ مفاتيحك وافتح كل باب وانتظر فى آخر الابواب
ولتغتصب بوردة الحب نهار العالم النائم فى الاعماق
ولاتبح بالسر ، فالرياض فى « شيراز »
مغسولة باللازورد ودم العشاق
والفجر فى اعماقها مختبىء فى عتمة الاوراق
قال دليلي ، واختفى بين كنوز مدن تذبل
في الشمس وصوت العاشق الفقير فى الصحراء

والشاعر لايحدد الابعاد الزمنية الثلاثة بميــلاد وموت وخلود ولا بستقبل جيل او اجيال ولكنه يغرق فى لجة هذا الزمن العاتي الذي يلف البشرية كلها بأهواله ، ويرى الانسان الحقيقي يقود الماضي الى الحاضر ويمضي بالحاضر الى المستقبل ، بتعادل متزن ، فتصبح الحياة اكثر بهاء وأقل حزنا ، وليمثل الفرد انتماءه الانساني بشكــل يتفوق على ذاتــه ويتجاوزه[١٨] :

توحد الواحد فى الكل
والظل فى الظل
وولد العالم من بعدي ومن قبلي

وتمر بالشاعر فترات من اليأس حين يقع فى فراغ لازمني ، تتشابك فيه الاوقات وتضيع معه الحدود ، ويحكمه الذهول ، وتغيم معه الرؤى • وهذا الصراع الدائم بين الماضي والآتي ، وفوران كل الدماء تشوفا الى المستقبل الثائر على التواريخ العتيقة ، يورث الشاعر حين يدرك ان الصدى اقوى من كل الاصوات ، شيئاً من الندم والشك وخيبة الامل ، وحين يرى ان الانسان نفسه يوقف المسيرة ويحطم صوى الطريق الطويل الى الغد الآتي : « عقارب الساعات للوراء عادت • وقع المحذور »[١٩] ، وما أكثر ما أعاق الانسان ، عامدا او غافلا ، روعة مسيرة التاريخ الظافرة[٢٠] :

يا ايها المخنثون : اوقفوا عقارب الساعات
وأوقفوا الانهار
فكــل مابنيته ينهار
أمام عيني : يالهذا العار

ويؤدي به اليأس ان يرى المستقبل جزءاً من الماضي ، مادمنا نقف في الحاضر ، لانحمل سوى القهر والاذلال والخيبات المتواصلة[٢١] :

عرفت ، ياحبيبتي ، كل سجون العالم القديم
لكنني اكتشف الان سجون العالم الجديد

والقهر والاذلال فى الازمنة الحديثة
والموت فى أقبية المدينة

وان الذئاب التي تطبق على هذا العالم بانيابها الشرسة لايمكن ان تطلقه حرا ، يسير الى المستقبل ، وتثخنه دوما بجراح ذلك الماضي لتشل فيه قدرته على التحول والنمو والابداع فيرضى بما انصرم ويقتعد امجاد أجداده ، يفلسف كسله اليومي وتخلفه الدائم وانحساره عن الانسانية وخياناته للاجيال القادمة[٢٢] :

ياعالما يحكمه الذئاب
ليس لنا فيه سوى حق عبور هذه الجسور
نأتي ونمضي حاملين الفقر للقبور

ولكن الانسان الحقيقي لايغادر مسيرة الحياة الكبرى ، هروبا الى الماضي السعيد ، ويبقى واحداً من افرادها ، يحمل معه التجربة والمحاولة ، ويظل يسير ، وللمستقبل تقوى خطواته تشبثاً واصراراً وتصميما[٢٣] :

نستأنف المسيرة الكبرى من الموت الى الميلاد
نظل فى كل عصور البؤس والضياء
معلقين بخيوط الامل السوداء
منتظرين النار والطوفان

* * *

اتبع موت الطائر المهاجر
وشاعر الذاكرة الجديدة
في كتب المستقبل البيضاء

ويمثل البياتي[٢٤] بجملته الشعرية الحديثة وموقفه الفكري الواضح ، زمنية جديدة ، تفصح عن روح درامية متأزمة تقيم حواراً مع العالم وتتمثل

في اساليب متطورة وقصائد تتخذ لها دورات متعاقبة[٢٥] ،وتتطلع دوما الى أشكال من التعبير تسابق الزمن في تجددها المستمر .

---

(١) سيرة ذاتية لسارق النار ، منشورات وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٧٤ ، ص ٥٨ .

(٢) ، (٣) أباريق مهشمة ، ط ٣ ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٨ ، ٧٣ ، ملائكة وشياطين ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٦ .

(٤) سفر الفقر والثورة ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٨ .

(٥) ، (٦) الموت في الحياة ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٠ ، ٤٠ ، ٢١ ، ٤٤ .

(٧) عيون الكلاب الميتة ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٣٨ .

(٨) اباريق مهشمة ، ص ٧٩ .

(٩) عبدالوهاب البياتي ، تجربتي الشعرية ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٣٨ ، ويقول البياتي ، ص ١٦ : « حينما كنت أقف امام كوب قديم أو قطعة عملة أثرية او تصوير باهت الالوان ، كان يجتاحني احساس من انعدام الصلة بالعالم الخارجي ، واروح افتش عن هذه الاثار في نفسي ، ماذا بقي منها لدى ؟ كل هذه الاشياء القديمة تركها اصحابها ومضوا ، كانت هي الصورة الحية لعمق الزمن ، والشيء الوحيد الباقي من حياة الناس الذين عاشوا في زمن ما . ان الفن وحده عصارة تجربة الانسان ، هو مايتركه الناس بعد حياتهم » .

(١٠) يقول البياتي « فالفهم الموضوعي للتناقضات التي تسود قانون الحياة ، وفهم واكتشاف منطق حركة التاريخ والتفاعل مع احداث العصر، يمنح الشاعر الرؤيا الشاملة والقدرة على التخطي والتجاوز والتوجه الى المستقبل . والتوجه الى المستقبل يمكن ان يتم اذا لم يستطع الشاعر ان يعايش ويستوعب الحاضر الذي يسقط ميتا في كل لحظة لكي يصبح ماضيا لان المستقبل لايولد من الفراغ واللاشيء » ، تجربتي الشعرية ص ٣٦ .

(١١) الموت في الحياة ، ص ٩١ .

(١٢) تجربتي الشعرية ، ص ٣٤ .

(١٣) قصائد حب على بوابات العالم السبع ، منشورات وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٧١، ص٢٤، ويقول البياتي: «ان فناني الثورة المضادة الذين هزمتهم حركة التاريخ ينشطرون على انفسهم ، فيتحول فريق منهم الى عبدة لاوثان الماضي وعصوره الذهبية المزعومة او دعاة الى مستقبل غامض ، لعله

يحمل لهم قارب النجاة من حاضر ادانهم واسقطهم من حسابه .. » ، « والشاعر الثوري لايقدم على الانتحار او قتل نفسه ، الا بعد الوقوع في شرك الخديعة العامة ، خديعة اصدقاء الثورة امس ، واعدائها اليوم ، عندما يطبقون على شطآن عصر بأكمله وتصبح لهم القدرة على تجميده واجهاض عطائه الانساني فيخيل للشاعر آنذاك انه قد فقد مبرر وجوده ومعناه ، لان وجوده ومعناه قد انسلخا عن وجود ومعنى الاخرين .. » تجربتي الشعرية ، ص ٣٧ ، ٧٩ .

(١٤) تجربتي الشعرية ، ص ٣٣ ، وينقل البياتي رأي ريجي دوبريه في كتابه ثورة في الثورة : « لايمكن لنا ابدا ان نكون معاصرين مئة بالمئة لزماننا الحاضر ، فالتاريخ يتقدم مقنعا : يدخل الى الفصل الجديد بقناع الفصل السابق ، فلا نعود نتعرف على شيء من المسرحية . عند رفع كل ستار، يجب اعادة ربط الخيوط . وليس الخطأ في هذا خطأ التاريخ ، بل خطأ نظرتنا المشحونة بالتذكارات والصور التي التقطتها في الماضي . فنحن نرى الحاضر كطبعة ثانية للماضي . حتى ولو كان هذا الحاضر ثورة ».

(١٥) قصائد حب ، ص ٥٤ .

(١٦) الموت في الحياة ، ص ٨٣ .

(١٧) ، (١٨) قصائد حب ، ص ٦٠ ، ١٢ .

(١٩) ، (٢٠) يوميات سياسي محترف ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٤١ ، ٤٨ .

(٢١) قصائد حب ، ص ٧٧ .

(٢٢) الموت في الحياة ، ص ٣٠ .

(٢٣) قصائد حب ، ص ٥٥ ، ١٥٠ .

(٢٤) ينظر للمؤلف : الشعر العراقي الحديث ، مرحلة وتطور ، ص ١٣٤ ومابعدها ، والتبشير بالثورة وقيمها في الشعر العراقي المعاصر ، منشورات وزراة الاعلام .

(٢٥) تنظر كمثال : قصائد حب الى عشتار ، في ديوان الكتابة على الطين ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٢٧ ومابعدها .

الواقع والحلم

لانجد للماضي ظلالا كثيرة فى شعر سعدي يوسف[1] ، ولا يبقى منه سوى مايثري الحاضر والمستقبل ، بعملية زمنية يمتد فيها ذلك الماضي بمقدار مايضيف اليه الحاضر من تجارب تعين الانسان ان يقف على قدميه : لاتتقاذفه الابعاد الثلاثة ، فيتأرجح يمينا ويسارا ، ويضيع جهده ويظل أسير أنانيته ، وسجين عمره اللازمني ، وينفصل عن جموع مضت وتأتي ، في عملية طبيعية متلاحقة ، لايلد فيها الابناء آباءهم ، ولاينهب معها الاجداد أفكار احفادهم ! وفي قصائد سعدي يتحول المثال الى حقيقة ، ويتلبس الحلم بالواقـــع ، وتحتفظ الرومانسية بخصائصها ولكنها تتفوق على ابداعها الخاص حين تتضاءل فيها الفردية لتصبح اكثر انسانية وشمولا وكأن الشاعر فى حوار دائم مع نفسه ومع العالم : « أسير مع الجميع ، وخطوتي وحدي »[2] ، بـروح درامية ونفس مسرحي وبراعة فى الرمز ووضوح فى الغاية وشفافية في النظم وانتقاء للكلمة وحذر شديد من الوقوع فى وهدة الفكر المظلم والضياع فى العصور السائبة ، ويختصر سعدي كل أزمنة الشعراء في صيحة تحول وتغيير تظل أصداؤها تتردد فى قصائده ، ويعمل على ان يكون الصوت أكبر من الصدى ، والحاضر اجمل من الماضي ، والمستقبل خير وريث لهما فى العتمة والضوء والموت والحياة والرجوع والتجاوز ، ويمزج فى الشعر تجربته وغربته ورومانسيته ومثاليته وواقعية موقفه الفكري ، وانطلاقته السريعة الى المستقبل ، وتظهر قصيدته عارية من تصنع ومن انفلات عقلي وأنانية نرجسية وتزييف وتهريج ، وتعمل على ابداع زمن الانسان ، وتطهره من شرور الماضي والحاضر ، وتقتلع النسوغ التي جف فيها الرواء ، والجذور التي نخرت فيها الديدان ، وتغرس الغصن الاخضر في ارض خصبة ، فينمو ويورق ، وتطلع السنابل بعد البذار ويسمع صوت الرعد فى زرقة البرق ، ومن لا يختار ، وينتظر ، مطلع الشمس ؟ ويبقى ينتظر حتى يراه[3] :

ألست تراه انتظاراً طويلا ...

وليس اختياراً ؟

فمن لايرجي السنابل بعد البذار
ومن لايرى فى الزهور الثمار
وفى زرقة البرق صوت الرعود
فهل مطلع الشمس فيه اختيار ؟
نعم ... ان فيه انتظارا

ويجد سعدي فى الماضي سجنا يطبق على الانسان ، بارادته ، وتلتف حوله قضبانه باختياره ، وتمثل تلك القضبان ذكرياته الذاهبة ، فان وقع أسيرا لها ، حكم على نفسه بالبقاء في زنزانة العمر ، يحول المستقبل الى ذكريات ويمثل معها الحاضر محطة للعبور ، وكلما أوغل فى تلك الذكريات امتدت القضبان وتجمعت وسدت عليه منافذ فكره وتطلعاته وطموحه[٤] :

اريد ان اخبرك الليلة
بأنني فى قبضة الذكرى
سجين دونما سجان
وحين يبدو التل كالغيم ، ويدنو الغيم كالتل
وترتعي في العشب المبتل والدالية الالوان والقطعان
اغنية للبحر والصحراء
اغنية للسرو والنخل
أغور فى الذكرى ، فتمتد على جبهتي القضبان

ويرفض التتابع والتشابه ، لاخلق ولا ابداع ، وكأن الزمن يموت فيبقى الحرف مشلولا ينخره المنفى ويضنيه الوقت الراكد ، وكأن ابعاده الثلاثة لاوجود لها ، أصابها جدب الليالي التي لايستطيع فيها الانسان ان يستحيل جزءاً من حياة استغرقته بعطاء وجوده[٥] :

أمثلما مرت عليك الليلة الاولى
تمر هذي الليلة الالف ؟
أيبقى الحرف مشلولا
ينخره المنفى ؟

ويتمرد على تواتر الزمن القديم وضيعة الانسان الذي شوه واقعه وحطم وجوده فيه ، ويسعى الى زمنية جديدة ، ويهب مع الواهبين سماء الحق غصنا وراية ، فيطبق الصبحان معانقين رجال هذا الزمان ، يتهيأون،ومع العالم الكلي ، لما يضم المستقبل من تجارب وما يفتح من أبواب وما يبدع من عوالم[٦] :

وهبنا سماء الحق غصناً وراية
وعانقنا الصبحان والعالم الكل
فوارس من هذا الزمان وأهله
ونحن لآتيه اذا ما أتى أهل

فى بلاد تمدها بحار الشمس باشراقة أبدية ، تستبق العصور فوق جبينها ، وتزهر الآمال الربيعية فى أرضها ، تجترح المعجزات ، وتمتد الى الابعد ، فى عوالم تبحث وتكشف وتتطلع الى انسان الغد الآتي[٧] :

بلادي في بحار الشمس ، فوق جبينها الوضاء تستبق
العصور ، ويزهر الامل الربيعي الذي غنته ارض ، كل
مافيها اجتراح الابعد الابعد ...

وتدور الدنيا وتتلاحق فيها الساعات والايام كقطار الليل ، يمضي فى طريقه ، لايلوي على شيء ، يطوي القفار والوهاد ، ويمربمحطات الزمن دؤوباً سريعا ،ولايطيق الانسان المحكوم بالماضي ان يدور مع الدنيا ولاينسجم وسرعة التكشيف الزمني المعاصر ، فيود ان تثبت هذه الارض فى يوم واحد يتكرر على مدى السنين والاعوام ، برتابة وتشابه ، يخاف من التجربة ويخشى ان يفقد رصيده من تراكمات الماضي المحنط ، فتكتسحه الرؤى الجديدة وتحيله أثراً صدئا فى متاحف الازمنة العتيقة[٨] :

على عيني ، سمعنا ، لكن الدنيا
تدور اليوم ، أسرع من قطار الليل

وبالرغم من التوقيت الجديد وجنون زمنية القرن العشرين ، مازالت مدن تعيش خارج مدار الزمن وتحيا الموت ، يتعداها الزمن ويتخطاها الى أماكن اخرى تعرف كيف تزرع طريقه بالـورد وكيف تستقبله بالـرايات « مدينة مامر فيها الزمان »[٩] ، ويعيش انسان هذه المدينة خارج أطر العصر ولايعترف الا بماضيه ويظل أسير النفس المتشبثة بعقل تحجرت خلايـاه وتكلست فلا يمكن للزمنية الحديثة ان تنفذ اليه ، ارتضى وقنع ونام واستراح وابدل الحياة بالعدم ، وتلفع بأكفانه ، وسار حيا ميتا ، واراد للجميع ان يشاركوه فى موته ، وشوه كل سمات الخير والابداع ، يترك أثرا يعيق مسيرة التاريخ ، وسنة التطور ، لفترة ما ، حين تتضافر جهـود كبيرة لابقائه فى مقبرة الاحياء ، من اجل استغلال قدراته وتواريخه التي لم تمر عليها الازمان ، وهذا الانسان الذي يحاصر عيونه وأزمنته ، يدع الاوطان تحيا اللاحاضر ، وتميت مستقبل اجيالها الآتية ، فيستحيل الزمن الثلاثي ، بأبعاده ، غريبا يتطلع فيه السر الى السر ، والعدم الى الزمن ، واللاوجود الى الحياة[١٠] :

أياوطني المحاصر ، ايها الوجه الثلاثي
وياعينين جائعتين تمتدان بين الصخر والبحر
وياوطن المرايا ، ايها الجرح المفتح ، ايها الجذر الثلاثي
جريح أنت ، تنزفنا دما ودما ، ولكنا
نريد الجرح ، بدءا منه بالصفر
أيا وطني المحاصر بالذين يحاصرون عيونهم ،
يا أيها الزمن الثلاثي
غريب أنت ،
وجهك مصلت ،
عينـاك جائعتـان للسـر

وفى سنوات الغربة البعيدة تبدو للشاعر تلك المدينة جزيرة للصقر ، غامضة ، لايدرك مافيها ، تظل تعيش فى الظلمة ، مسحورة مهجورة ، كمركب غاص الى القاع[١١] :

يحجبها سقف من النخل فلا نعرف ما فيها

ويأكل النورس والبط الشريدان أغانيها
وحينما يزهر فوق الساحل النور
تظل في الظلمة ، فى ظلمتها الخضراء مهجورة
كأنها قصر وراء النهر مسحور
او مركب غاص الى القاع ، وابقى راية سوداء مقرورة

وتتضح صورتها من خلال ضباب الفجر ، يبدو الماء والطين ذوبا كالقهوة والنارنج والتين ، وتتلاحق النخيل اشباحا ، وكأمر مباغت ، تفتح الجزيرة شباكا فتجتاحها رياح الزمن ، ولكنها تنتفض على نفسها ، تهلع وترتجف ، فتطبق على العالم ذلك الشباك ، ولكنه لايصمد ازاء الزمن العاتي[١٢] :

وفى ضباب الفجر ، يبدو الماء والطين
ذوبا هو القهوة والنارنج والتين
والنخل اشباحا ، وسعف النخل اشراكا
وبغتة ...
فتحت للعالم شباكا
وانحسر الفجر الضبابي ، وبان الماء والطين
وبعض اكواخ ، وشيء فيك مكنون
جزيرة الصقر !
واطبقت على العالم شباكا

وتكبر الآمال وتمتد الآفاق الى آخر الدنيا ، ويتطلع الانسان الى حياة مغايرة ، الى مرفأ للزمن امين ، الى عوالم تشرع ابوابها وتفتح نوافذها ، وتستقبل براياتها الشموس الجديدة[١٣] :

واليوم اصبحنا كبارا ايها الزورق
وامتدت الآفاق حتى آخر الدنيا
وامتد نهر الشيب فى الصدغين والمفرق
لكننا لما نزل نسأل أن نحيا

أن نعبر الخيط الى الجرف الذي يخفق

وتدعو الجزيرة الشاعر والانسان ان يمنحها الحياة ، ان يهدم اسوارها البالية لتبني عوالمها المشرقة ، ان يعيد الدفء لأطفالها والزهر والاثمار لاوراقها ، وان يحيا يومها المشرق[١٤] :

جزيرة الصقر
لقد نام هنا الشارع
وانقطع الخطو ، ومرت نسمة في غصن ليمون
مثل سنان من حرير خيطه اللامع
وانت ...
في الماء تنامين ، وكالماء الذي يرجف
ترجف اضلاعك تدعوني
ان امنح الدفء لاطفالك والبرد لاحداقك
والزهر والاثمار واللون لاوراقك

* * *

جزيرة الصقر !
سأحيا يومك المشرق

ومهما تنوعت وسائل المحكومين بالماضي ، فالصورة الزمنية المعكوسة لاتسود ، والقيم لاتسير على رأسها ، فالزمن علم وليس باسطورة ، والتاريخ لايهزم ، والمنبع سيبقى متدفقا ، والطريق الذي يشق النجوم لـن تغطي الغيوم العابرة ذراه[١٥] :

وستنقلب الصورة
فالعالم ليس بناعورة
غامرت ولكن العالم
علم ، لا اسطورة
تاريخ العالم لايهزم

حتى لو شوهت الصورة

والمنبع لايهرم

*   *   *

... ياطريقاً يشق النجوم

لن تغطي ذراك الغيوم

---

(١) افتقد هذا الكتاب قصائد للشاعر ، ودواوين شعراء اخرين وتتطلع الى مجموعات شعرية كاملة تصدر لهم ، وان هيء لمؤلفه الوقت والنص فسيلحقه بدراسات جديدة .

(٢) ، (٣) مجلة الاداب ، العدد ٦ ، ٣ ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٧ ، ٢٤ .

(٤) ، (٧) بعيدا عن السماء الاولى ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٠ ، ١١ ، ٧٠ ، ٧٨ .

(٨) ، (٩) قصائد مرئية ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٥٣ ، ١٩٢ .

(١٠) نهايات الشمال الافريقي ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٤ .

(١١) ، (١٤) مجلة الاداب ، العدد ١ ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٧ .

(١٥) المصدر السابق ، العدد ٣ ، ص ٢٤ .

الأدب المتكامل

بدأت تزول منذ مطالع هذا القرن[1] آخر مظاهر الانبساط الزمني الذي سيطر على كوكبنا الارضي وجعله يحبو طيلة عهود غابرة بالدعة والسذاجة والبساطة والسعادة الغامرة ، واتخذ الزمن مسارا جديدا ، مكثفا ، متوترا ، يلغي في ابعاده من امتد بهم الوقت وانبسط ، واصبح من يعيش خمسين سنة في هذا القرن كمن عاش خمس مئة سنة في القرون السابقة ، بفيض تجاربه وثقافته وتطلعاته ، ومن يقرأ خمسين صفحة الآن بموضوعية وتكثيف فى الابداع والتأليف كمن قرأ خمس مئة صفحة فى الماضي تناولت موضوعات مختلفة لا رابط بينها سوى التداعي والاستطراد .

وظهر الصراع الزمني واضحا فى كل مكان ، عاد بعض الناس الى الماضي كرد فعل للرعب الذي اكتسح الانسان الوديع ، ونفذ آخرون الى المستقبل برؤيا واضحة يخططون له نافضين عن كواهلهم اثم الحلم واستغراق الخيال فأصيبوا بالتشنج الحضاري ، وتفوقوا على انفسهم قدرة وذكاء ، واصبحت قضية الزمن لعبة هذا العصر واساس حضارته وتفسيرا لما فيه من مظاهر متناقضة .

وظهرت ، فى بلادنا ، بعد الحرب العالمية الثانية ، نتيجة للتوتر الزمني ، محاولات شعرية بسيطة تلغي نظام الشطرين وتنوع القوافي ولاتلتزم بعدد معين من التفعيلات فى البيت الواحد ، وكانت ذات طابع فردي واخذت تبحث عن مضامين جديدة واشتدت يوما بعد يوم وفتن بها اصحاب التوقيت المعاصر، ورفضها الزمنيون القدامى ، وتجادلوا وتشاتموا !

وتبرز هذه المحاولات الشعراء المحدثين لابسين مسوح الريادة والتجديد تتقمصهم روح شعرية متمردة لاتمت بصلة الى الدعة الانبساطية التي استغرقت قرونا عديدة ، وكان هؤلاء الشعراء يكتبون بعمق وتكثيف فكري ويحاولون

ان يمسكوا بخيوط زمنية جديدة بدأت تصرع رؤى سعيدة انتظمت خطبا شعرية واوصافا حسية ومدائح مزيفة واستحسان سدنة الشعر ، في المجالس الخاصة ، للاكاذيب الموزونة المقفاة •

ووقع هؤلاء الشعراء في وهدة الوقت وما عادوا يسابقون أزمانهم ، ومضى اكثر من ربع قرن ومازالت تلك المحاولات تتمثل في قصيدة واحدة ذات نفثة وجدانية واحدة وطابع رمزي احيانا ، واعاق بعض النقاد تطويرها ، بما كتبوه عنها ، من قضايا جانبية لاتمس جوهرها ، ووقف المنحسرون الى الوراء متراصين كسد منيع أمامهالايفهمون منها شيئا ولايحاولون ولايريدون لها نماء وازدهاراً ، وكانت حججهم تلف وتدور وتقع في مهاوى النفعية والانانية واستغلال النصوص الادبية لتنفيذ المآرب الشخصية • وربع قرن ، بالنسبة الى مامر بنا من تجارب واحداث كبيرة ، فترة طويلة لمحاولات شعرية لم تتعد القصيدة ذات الصفحة الواحدة ، ولم تتطور ، في أكثر نماذجها ، الى اشكال جديدة ، وانما دارتفي اطار محدد ولم تقترب من العمل الادبي المتكامل بذاته ، فقد كانت جزءا منه ساعدت الزمنية المنبسطة على تفكيكه وعدم تكامله ولذا بقيت تتخبط في محليتها ووجدانها وتطلعاتها الناقصة ، واختار بعض الشعراء عامدين ان يكونوا بين شقي رحى:التوقيت الزمني المكثف والانبساط الذي مازالت تحيا فيه بعض نوازعنا فتحدثوا عن الالم والضياع والغربة والمأساة •

ودعا بعض النقاد الى وحدة الموضوع في القصيدة ، وربع قرن مليء بالتجارب والمحاولات والاحداث يدعونا الى اجتياز وحدة الموضوع الى وحدة العمل الادبي المتكامل الذي يتخذ شكلا مسرحيا او قصصيا او ملحميا او يرفض هذه الاشكال جميعا ليجد طريقته بنفسه لايضع امامه هدفا ، وقت انشائه ، فهو ليس محدداً بقراءة او مسرح أو أوبرا او اهازيج الخ ،يوجد ويبتدع ، بعد ذلك ، اساليب تقرر بقاءه واستمراريته قراءة او اناشيد شعبية او تمثيلا او شخصيات فلكلورية معروفة تدور على السنة الناس بحوارها الرائع من جيل الى جيل[٢] ، والامثلة كثيرة ونذكر اشعار كارسيا لوركا حين تحولت الى جزء من لغة شعبه اليومية ، واتخذت لها اشكالا شمولية متنوعة :

أغاني والحانا تصاحبها القيثارة فى كل زاوية ودرب وخطوات راقصة على المسرح ، واجواء ادبية مميزة ذات نكهة خاصة ، واصبح لوركا ، بعد مقتله ، رمزا لشعبه واسطورة تعيش في دمائهم ، وكان لمسرحياته وقع عظيم فـــي نفوسهم فعاشوا احداثها وكأنهم الابطال الحقيقيون ، ومازال لوركـــا يتجدد مع الايام[٣] .

ولا يمكن ان نعتذر بان مرحلتنا الحاضرة لم تهيء لمثل هذا التكامل الادبي، فالعبقرية لاتعرف الحدود ، ولاتستجدي الحضارات ، وتتأبى التأجيل والتبرير، والكاتب حين ينشيء لايفكر فى النتائج التي ستؤول اليها انجازاته الادبية ، والخلق الفني ليس عملية مقايضة او تجارة او اقتناص شهرة او مال ، وقد يسبق الاديب زمنه بعشرات السنين .

واعمالنا الادبية المتكاملة ، القديمة والحديثة ، كثيرة ولكن لم يتح لنا ان نستثمرها او ان نستخرجها من مظانها لان تلك الاعذار والملكة المحددة تقوم حائلا بيننا وبين الانطلاق ، واديبنا يتعجل الشهرة دائما ، فالاساطير والقصص القديمة واخبار الفرسان والرحالة والجان كثيرة وهي تعيش حيية في بطون التاريخ تنتظر الضربة الساحرة لتخرج الى الناس فى نطاق اهوائهم الشخصية ومشاعرهم الانسانية اذ تهزهم جميعا فينشدون ويقرأون ويفهمون ويمرحون ، فيتم التزاوج بين الماضي والحاضر من اجل ابداع مقبل افضل ، وهمومنا الحضارية المعاصرة خير معين للكثير من الابتكارات الفنية ، وقد اصبح للرمز فى شعرنا الحديث زهو وكبرياء يتحدى به الشاعر غباء عصره وزمانه ، ويلف به أبعاد اكثر من قصيدة واحدة الا انه مايزال يتيم النفثة الشعورية الواحدة .

ادت القصيدة الواحدة دورها بنجاح في ربع قرن[٤] واستغرقت ، من الزمن ، اكثر مما يقتضيه ذلك الدور ، وآن لها ان تصبح البذرة الاولى للعمل المتكامل الذي يظلل الناس جميعا بافيائه ، وستبقى المتنفس الاول لشاعرنا المتمرد ـــ المقيد الذي لايستطيع ان يعبر عن مشاعره كلها بطريقة مباشرة والا فسيفضح نفسه امام عصره الراكد . والقراء الذين يفهمون هذه القصيدة كالصوفية لا يكشفون ولا يتكاشفون . وهكذا انحسر الشعراء ومريدوهم الى

طبقة اكثر من خاصة وصار للقصيدة مناخ فريد ونأت كثيرا وحلقت وصعدت وتبدو نهايتها غامضة اذ لم تعد وتنبسط بتوقيت حاذق وزمنية جديدة وتتخذ لها اشكالا من التكامـل الادبي .

وستتبدل القيم الشعرية السائدة وتتخذ لها اساليب غير متماثلة وتعتمد الحدث الدرامي اساسا لها وتبتعد عن الغنائية وعن الاشعار الوجدانية المقطعة حوارا وعن المتنفس الوحيد لمأساة الشاعر المعاصر ، القصيدة الواحدة المثقلة بالرمز والغموض .

وبمفهوم جديد للزمنية يمكن ان ننشىء نصوصا مسرحية جيدة ، ومن اسباب ضعف الادب المسرحي عندنا عدم وضوح فكرة الزمن فى اذهاننا ، فالتراجيديا الاغريقية لم تظهر الا فى الوقت الذي نضج خلاله الاحساس بالزمن : « ونحن نعرف يقينا ان الوقت يكشف عن نفسه من خلال التغيير ، وبهذا المفهوم فان كل التراجيديات تعالج الزمن ... ذلك بأن موضوعها الرئيس هو دائما حدث من الاحداث التي تغير الاوضاع ... وقوة التراجيديا تستنـد اسـاسـا الـى مـافيها مـن اختـلاف بين مـايقـع (قبل) وما يقع (بعد) ، وكلما ازداد عمق هذا الاختـلاف ، كلما ازداد عمـق المأساة »[٥] .

ويبتدع النص الادبي وحدة زمنية واضحة قائمة بذاتها ذات جـــو اصيل يطوي عوالم متنوعة تدور فى اطار واحد وتتفرع عنه انجازات كثيرة فالادب المتكامل يستغل بعد خلقه مواهب الاخرين وقابلياتهم ، ليس لفهمه وتذوقه فقط وانما لتطوير اشكاله وتحويرها ونمائها مع الزمن .

---

(١) نشر هذا الجزء في الاداب بعنوان « العمل المتكامل والاداء المسرحي » العدد ١ ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٨ ومابعدها ، وجرى عليه تحوير وتغيير واضافة وحذف .

(٢) يقول فتحي العشري في ترجمته وتقديمه لمسرحية جورج شـــحادة (مهاجر بريسيان) ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ١٧ : « ولكن اسلوب شحادة لم

يمر بمرحلتين كما يتبادر الى الذهن ، فهو لم ينتقل من الشعر الى المسرح ولكنه نقل شعره الى المسرح ، ذلك لانه لايعتقد في مسرح ناجح ويكون خاليا من الشعر وانما المسرح الناجح بحق هو المسرح الشعري . وفي رأيه انه لايوجد شعر يقف هكذا وحده كالرجل المعلق في الفضاء وانما على الشعر أن يخرج من قوقعته ويتجاوز اطاره ليحل في شيء .. في قصة ، في رواية ، في مسرحية ، ذلك لانه اذا كان الشعر هو روح التجربة الفنية فلا بد للروح من ان تحل في جسد حتى يكتسب الاثنان معا وجودا ومعنى » .

(٣) لتفصيلات أكثر ، تنظر دراسة الن لويس عن « المسرح الفنائي الشعبي،كارسيا لوركا » في مجلة المسرح والسينما ، العدد ٦ ، بغداد ١٩٧٢ ، ص ٢٧ وما بعدها ، ترجمة عبدالله محمد الجبوري . وفي الاداب ، ذكرت امثلة اخرى كمسرحية بيجماليون لبرناردشو التي طورها عن الاسطورة اليونانية للمثال الذي عشق التمثال الذي صنعه ، فتحول عند برناردشو الى فتاة جاهلة فقيرة اتقنت ، بصنع استاذها ، لغة ولهجة الطبقات الراقية ، فأصبحت فردا مزيفا في عوالمها ، فأحبها ذلك الاستاذ ، وكرواية زوربا اليوناني لنيكوس كازانتزاكي الذي ثأر لحياته المضيعة في البحث والدراسة فخلق شخصية تمناها لنفسه كانت حصيلة تجارب الحياة وخلاصة لها .

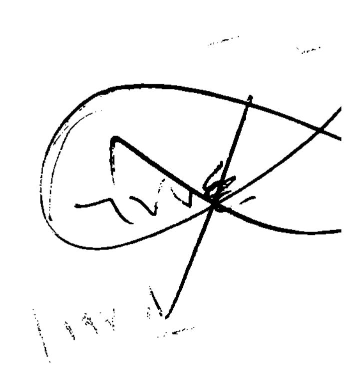
(٤) في ندوة عقدها محمد الجزائري للعدد الخاص من مجلة المسرح والسينما بمناسبه المسرح العالمي ، بغداد ١٩٧٢ ، ص ٧١ ، ٧٢ ، قال سعدي يوسف : « ان قصيدة الصفحة الواحدة بلغت مرحلة النضوج او كادت ان تبلغها . والان في الواقع نحن نحس ، تماما برغبة مضنية في الخروج من اطار هذه القصيدة » ، وعقب عبدالوهاب البياتي : « طبعا نحن لانمنع الشاعر اذا مانضجت القصيدة لديه انينتقل بها عبر تخوم فنية جديدة ، ولكنني اشترط الا يكون ذلك على حساب الجودة وكعمل عقلاني ارادي ، انا اعتقد ان القصيدة او اي فن من الفنون عندما ينضج نتيجة الجدلية الكامنة في طبيعة العمل الفني الناضج هي التي تؤدي ان تدفع بهذا العمل الفني الى استيعاب اشكال جديدة من خلاله . ان وظيفة الشاعر تختلف عن وظيفة الكاتب المسرحي تماما ، ولايشترط بالشاعر ان يكون كاتبا مسرحيا ... يجب الا نضع هناك شرطا في انناً

يجب ان نطور القصيدة الى المسرح والعمل المسرحي ، لان كل فن مستقل عن الاخر ، وان المسرح هو عبارة عن نوع من الانواع الادبية ، وكذلك القصيدة ، وهكذا » ، وقال مدني صالح : « ان الشاعر يكتب مسرحية اذا ما مرت تجربته في اجواء مسرحية ؛ هناك تجربة ، وصفة التجربة المسرحية في ان تكون ممتدة ، وقد تمتد مرحلة طويلة ومبوبة ، هـذا التبويب اذا حصلت فيه الحركة المسرحية فانه سيصبح مسرحية بطريقة تلقائية » .

(٥) ينظر : « الزمن في التراجيديا الاغريقية » ؛ لدي روميلي ، عرض وتحليل د.محمد عواد حسين ، عالم الفكر ؛ المجلد الاول ؛ العدد ٤ ،الكويت ١٩٧١ ، ص ٣٠٣ .

الفهرست

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
(٢٢٠ لسنة ١٩٧٥)



دار الحرية للطباعة
بغـــداد
١٩٧٥